

صاحبك القرآن



الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١ م

رقم الإيداع: / ٢٠٢١

الترقيم الدولي:

الناشر

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

فرع القاهرة

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

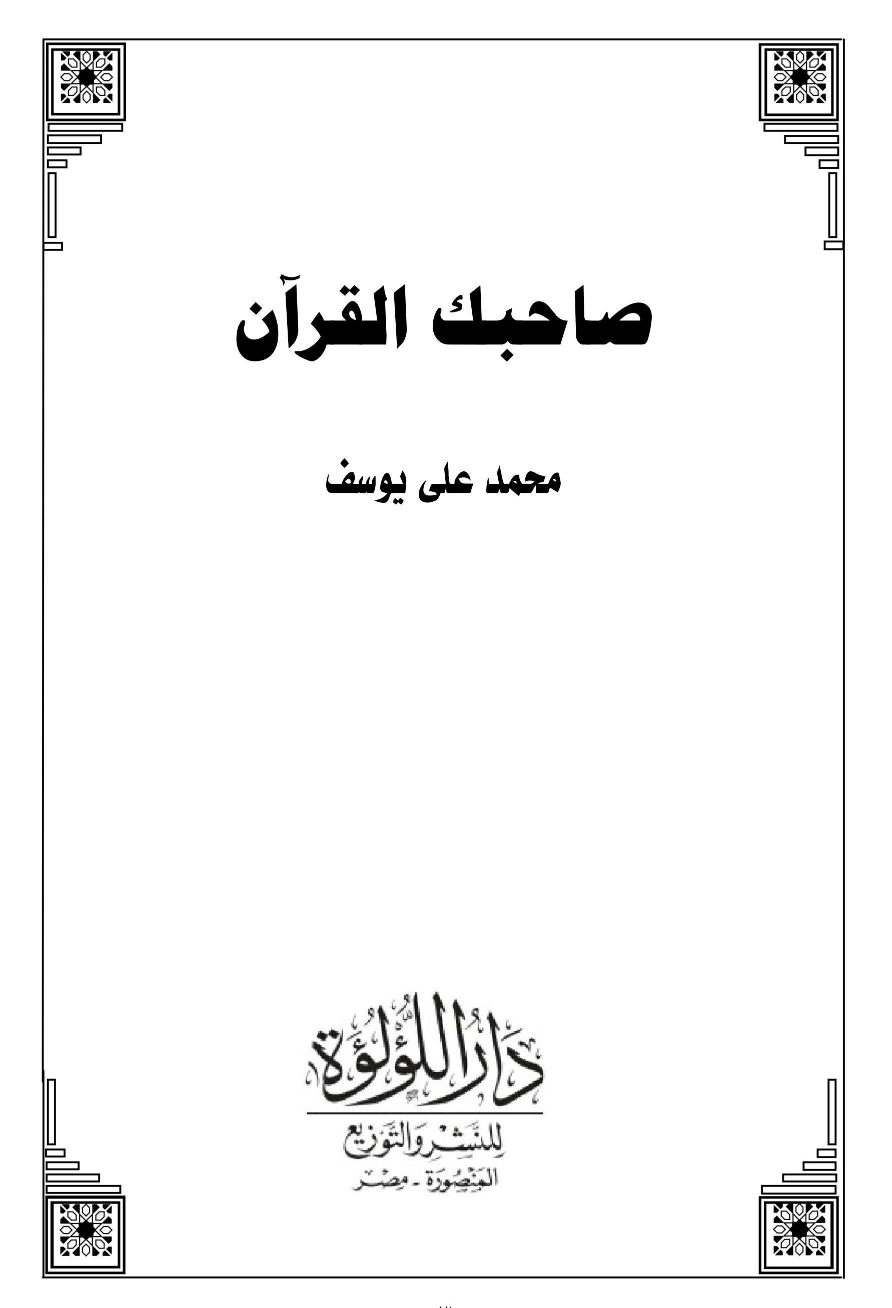
٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة

ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com

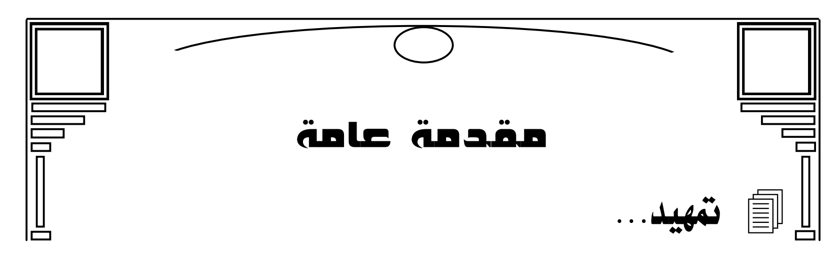


صاحبك القرآن

محمد على يوسف

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر





مقدمة عامة

تمهيد...

۞ المرحلة الأولى : ما قبل التلاوة

١ .تخلية وتهدأة

٢ . ربيع قلبي

٣ . استشعر حاجتك

٤ . استهداء

٥ . أن يكلمك ربك

٦ . فهل من مُدَّكِر

٧ . وِردك خط أحمر

٨ . خذ فكرة..

۞ المرحلة الثانية : مرحلة أثناء التلاوة

١ . خلوة بحق

٢ . على مُكث

٣ . نَقِّب عن كنزك..

٤. رأي العين

٥. أن تُعايش

٦. أن تجيب

٧. وأن تستجيب

٨. أن تتأسى

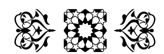
٩. أن تعقل

١٠. أن تُسَلِّم نفسك

١١. أن تصَدِّق

١٢. أن تتواضع

۞ المرحلة الثالثة: ما بعد التلاوة... الإثمار





أولا

مقدمة

لطالما أعجبتني فكرة الصداقة الحميمة أو الصحبة الوثيقة

لا أتحدث هنا عن العلاقات السطحية الصاخبة والروابط النفعية المتعارف عليها..

ولا أتحدث كذلك عن العلاقات الجمعية أو الشللية التي لا يستطيع أفرادها التعامل إلا في أطر مشتركة ومناسبات أو لقاءات يكونوا فيها مجتمعين

هم يحبون بعضهم البعض بلا شك وعلاقتهم قد تكون لطيفة مسلية

لكن ما أتحدث عنه ولطالما أعجبني هو شيء آخر تمامًا

«**لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**»

«**هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟!**»

في هاتين الجملتين اللتين قالهما رسول الله ﷺ عن صاحبه الصِدِّيق رضي الله عنه = يتجلى مقصدي

أن يكون لك من بين كل هؤلاء البشر الذين يحيطون بك من يصح أن تطلق عليه ذلك اللقب القرآني

صديق حميم

خل وفي

صاحب مقرب

كثيرون هم من يحيطون بك بلا شك

وكثير منهم من تألفهم ويألفونك

لكن من تحبهم وتجد في قلبك قبولا وميلا لهم = ليسوا بالكثرة ذاتها

وهم كذلك ليسوا بتلك الندرة

تستطيع أن تعد منهم وفرة ممن تحبهم ويحبونك إن طُلب منك ذلك

لكن أن يكون هناك من بين كل هذا الكم من المعارف الذين يملئون حياتك من يصدق عليه هذا الوصف

من بين أهل وأقارب وجيران..

رفقاء درب وزملاء عمل ودراسة..

أساتذة ومعلمين وأحيانا تلاميذ ومقتدين

من بين كل هؤلاء كم شخص يمكنك وصفه بأنه ما أتحدث عنه

أنه إلف روحك وصنو فؤادك

خليلك وصاحبك

تلك هي وربي الندرة بعينها

من بين كثير من العلاقات بعضها راسخ متين وأكثرها سطحي عابر؛ يصعب أن تخرج ولو بشخص واحد تعده صاحبك حقًّا

شخص يشكل وجودك حقا فارقا بالنسبة له كما يفعل وجوده معك

شخص تستطيع أن تتحدث معه لساعات دون أن تملّ أو يملّ هو

لن تحتاج كثيرًا للوصف والتفصيل لبيان أمر سيدرك مقصدك فيه بمجرد الإشارة

ولن يسارع لامتطاء سوء الظن إن زللت في العبارة

من تفكر فيه مباشرة حين تحتاج إلى البوح بما يجيش به صدرك

ولن تستحيي من ظهور ضعفك أمامه وستعلم يقينا أنه لن يحقرك لذلك

تعلم جيدا أنك قادر على الاتكاء عليه إن احتجت تماما كما سيسارع منكبك لدعمه إن احتاج

هذه الصورة التي قد تبدو للبعض مثالية هي ما كنت دوما أتوق إليها وكنت دوما أثق في كونها موجودة

حتى لو لم أرزق بمثلها بين البشر

لكنها قطعًا موجودة

وبتلك الكلمة التي تعبر عن هذه الصورة = عبر النبي ﷺ عما ينبغي أن تكون عليه علاقتك بما أنزل إليه من ربه؛ القرآن

❁ «**اقْرَؤوا القرآنَ. فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا (لأصحابه)**». رواه مسلم

❁ «**اقـرَؤوا الزَّهـرَاوَين: البقـرةَ وسـورةَ آلِ عمـرانَ. فإنهمـا تأتِيان يومَ القيامةِ كأنهما غَمامتانِ. أو كأنهما غَيايتـانِ. أو كأنهمـا فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ. تُحاجّان عن (أصحابهما)**». رواه مسلم

❁ «**يجيءُ (صاحبُ) القرآنِ يومَ القيامةِ فيقولُ القرآنُ يـا ربِّ حَلِّه فيلبسُ تاجَ الكرامةِ ثمَّ يقولُ يا ربِّ زِدْه فيلـبسُ حُلَّـةَ الكرامـةِ ثمَّ يقولُ يا ربِّ ارضَ عنه فيرضَى عنه فيُقالُ لـه اقـرأْ وارقَ ويـزدادُ بكــلِّ آيــةٍ حســنة**». رواه المنــذري في «الترغيــب والترهيــب» وصححه الألباني.

❁ «**إِنَّ القرآنَ يَلْقَى (صاحبَهُ) يومَ القيامةِ حينَ يَنْشَقُّ عنهُ قَبْرُهُ كَالرجلِ الشَّاحِبِ يقـولُ: هـل تَعْرِفُنِي؟ فيقـولُ لـهُ: مـا أَعْرِفُـكَ، فيقـولُ: أنـا (صـاحِبُكَ) القـرآنُ، الـذي أَظْمَأْتُـكَ في الهَـوَاجِرِ، وأَسْهَرْتُ لَيْلكَ، وإِنَّ كلَّ تَاجِرٍ من ورَاءِ تِجَارَتِه، وإِنَّكَ اليـومَ مـن ورَاءِ كلِّ تجارةٍ**». أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»

❁ «**إنما مَثَلُ (صاحبِ) القرآنِ كمثلِ الإبلِ المعَقَّلَةِ إن عاهد عليها أمسكَها وإن أطلقها ذهبَت وفي رواية: وإذا قام صاحبُ القرآنِ فقرأه بالليلِ والنهارِ ذكرَه وإذا لم يَقُمْ به نسِيَه**». «صحيح مسلم»

❁ «**يقالُ (لِصاحِبِ) القرآنِ: اقرأْ وارْتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في.، فإنَّ مَنْزِلَتَكَ عندَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَأُ بِها**». «السلسلة الصحيحة»

تأمل ما بين الأقواس المزدوجة..

يُقال (**لصاحب**) القرآن

(**شفيعًا لأصحابه**)

(**تحاجان عن صاحبهما**)

(**أنا صاحبك القرآن**)

كلمات ذات أصل مشترك تكررت في تلك الأحاديث التي ذكرتها في السطور السابقة

صاحب، أصحابه، صاحبهما، صاحبك

إنها الصحبة إذًا!!

لقد اختار النبي ﷺ تلك الكلمة تحديدًا -وهو الذي أوتي جوامع الكلم- ليصف بها ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بينك وبين القرآن

صحبة!

بكل ما تشمله الكلمة من معانٍ وخصائص وأركان

صحبة كلية للقرآن بأكمله فلا يكاد يفارقك ولا ترتاح ولا تأنس إلا معه وتسعى جاهدًا لاقتناص كل وقت تمضيه برفقته

وصحبة جزئية ومعرفة موضوعية لسوره المختلفة

حينَ ولَّى بعض الصحابة مدبرينَ يوم حنين أمر النبي ﷺ عمه العبَّاسَ فَناداهم: يا أصحابَ الشَّجرةِ -يعني أَهْلَ بيعةِ الرِّضوانِ- وفي روايةٍ: ناداهم «**يا (أصحابَ) سورة البقرةِ**» ينشِّطَهُم بذلِكَ فجعلوا يُقبِلونَ من كلِّ وجهٍ. صححه العلامة أحمد شاكر في مقدمة «عمدة التفاسير».

تأمل قوله «يا أصحاب سورة البقرة».

لقد شرفهم بهذا النسب بعد نسب لتلك البيعة العظيمة -بيعة الرضوان- ويا له من شرف

أن ينسب المرء لسورة من سور القرآن وأن يلقب بأنه من أصحابها

أي درجة من المعرفة والقرب تلك التي بلغها ليصل إلى هذا المقام.. مقام الصحبة

الصحبة الشاملة والنظرة الموضوعية العامة التي تربط بينه وبين كل سورة من سور القرآن والتي تعد توطئةً وتمهيدًا للمعرفة العميقة التفصيلية بمعاني آياتها وإدراك أحكامها وتوجيهاتها

هل وجدنا مثل ذلك في علاقتنا بكتاب ربنا؟

هل هي علاقة وثيقة تستحق بالفعل أن يطلق عليها وصف الصحبة الراسخة والأنس الجميل؟

هل صاحبنا القرآن؟

هل صاحبنا سُوره أو حتى بعض سُوره؟

بل هل صاحبنا سُورة واحدة منه؟

هل نستحق أن يُقال لنا يوم نرجع إلى الله هلموا يا أصحاب القرآن؟

ما أريد بتلك التساؤلات أن أضع تصورًا مثاليًّا يصعب الوصول إليه أو يغرس الإحباط في نفسٍ من لم يجد في نفسه تلك الأصداء والتفاعلات

هو فقط لفت لانتباهك عزيزي القارئ إلى أن هناك آفاقا أخرى من التعامل مع القرآن

آفاق الصحبة

وإن بديل تلك الصحبة عبر عنه النبي ﷺ بوصف آخر

«يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم»

هذا الوصف العجيب أطلقه النبي ﷺ على طائفة من الناس لم يكن موطن الخلل لديهم في كثرة التلاوة، أو كمِّ التعبد

على العكس، كانوا كثيري العبادة، يحقر الناس صلاتهم إذا ما قورنت بصلاة هؤلاء وكذلك صيامهم وتلاوتهم، ومع ذلك أتم النبي ﷺ وصفهم بأنهم يمرقون من الدين بسرعة مروق السهم من القوس!

ورغم أن القرآن هو في الأصل كتاب تغييري، أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولو أنزل على جبل لرأيته

خاشعا ولشهدته متصدعا متأثرًا فإن هؤلاء القراء العُبَّاد لم تنفعهم قراءتهم للقرآن، ولم تغيرهم للأفضل كثرة تلاوته

السر هو تلك الصفة التي لازمت قراءتهم، نفس الصفة التي تميز قراءة نمط من الناس اليوم يعد امتدادا للنمط السابق.. «**لا يجاوز حناجرهم**»!

عند الحنجرة منتهى الرحلة، وهناك أقصى مسافة تبلغها المعاني والتوجيهات القرآنية، فلا تصل إلى القلب، ولا تعبر أسوار العقل، ولا تسمو بها الروح، أو يصح بها الفهم، وبالتالي لا تفيد ولا تؤثر، والأهم لا تغير من واقع المرء شيئًا..

تلك هي الحقيقة المؤسفة التي يرفض كثير منا الاعتراف بها، وإلا فبمَ نفسر هذه الظواهر المحزنة التي تحيط بنا اليوم.

كمٌّ لا بأس به من التلاوة خصوصًا في مواسم الخير التي يحرص فيها الكثيرون على الختمات المتعددة، وعلى سماع القرآن وترتيله آناء الليل وأطراف النهار، والصلاة به كما في التراويح والتهجد برمضان ثم المحصلة الكيفية لا تساوي أبدًا الكم المقروء والحرص المشهود، والسر هو الموضع الذي ينتهي إليه القرآن.

أهي الآذان والحناجر؟ أم هي العقول والقلوب ومن ثم الجوارح والمعاملات؟!

أعتقد أن الإجابة واضحة من حولنا!

أتذكر مشهدًا كانت تتضح فيه تلك المشكلة بجلاء..

في واحدة من أجمل تلاواته القرآنية انطلق الشيخ محمد صديق المنشاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصدح بصوته العذب مرتلا آيات لو أُنزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، والحقيقة أنه في تلك الليلة تحديدا كان الشيخ متفننًا بشكل يفوق الوصف، ويبدو أن فتح الله تعالى له كان على أشده أثناء هذه التلاوة المؤثرة لآيات من أواخر سورة «المؤمنون»، تتحدث عن الآخرة والمآل والمصير ما بين جنة أو نار

هل كان تأثر الشيخ بالآيات سبب ذلك الفتح في القراءة؟

أم أنه كان رزقا ساقه الله للمستمعين ليدَّبروا آياته، ويتأملوا معانيها عبر هذا الصوت الشجي الذي يكاد يفسر المعاني من فرط تأثره بها وروعة تجاوبه معها؟

أم هـو صـلاح وتقـوى وخشـية اسـتقروا في قلـب الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وظهرت آثارهم على لسانه وفي تلاوته؟

ربما كانت تلك هي أسباب الفتح وربما غيرها، ليست هـذه هي القضية..

في النهاية كانت التلاوة رائعة، مؤثرة، مبكية، مذكِّرة..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ مَعَهُۥ.. كَلَّآ ... ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

عند كلمة «كلا» توقف المنشاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتمكن و(حرفنة) منقطعة النظير، وقفة تجعلك تتأمل تلك الكلمة الحاسمة التي تقطع أي أمل في العودة بعد انتهاء الأجل، وقفة تمنحك الفرصة للتدبر والذكرى ومراجعة الحال والتفكر في سبل الإصلاح قبل سماع تلك الكلمة هنالك في الدار الأخرى.

وقفة تستلزم الكثير من النظر، وتفتح باب القلب للكثير من الشجن والوجل، المنطق والفهم البسيط يقول ما سبق

لكن الواقع كان مختلفًا!

لقد تفجرت آهات المستمعين وتهليلاتهم عند تلك الوقفة المتمكنة، وبعد هذه الكلمة الحاسمة:

الله الله يا عم الشيخ

إيه الحلاوة دي؟!

إيه يا مولانا الجمال ده؟!

الله يفتح عليك يا سيدنا

يا سلام يا عم الشيخ

عظمة على عظمة

شلال من تلك العبارات المستحسنة انهمر عبر المذياع أثناء تلك الوقفة ليقطع سيل الأفكار التي دارت بخلدي أثناء استماعي لتلك الآيات المبكية:

﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠-١٠٤].

تستمر التلاوة، وتستمر معها الصيحات المتلذذة والتهليلات المشجعة، ويلتفت المستمعون لجمال الصوت وروعته وتلذذهم بالأداء، وينشغلون بذلك عن المعنى الخاشع الذي يفترض أن تسيل مآقيهم من خشيته، وتختلج قلوبهم لجلال مشهده الذي ينقلهم القرآن إليه كأنه رأي العين!

التلذذ..

الطرب..

الإعجاب..

مشاعر طبيعية تجاه هذا الصوت العبقري، وذلك الأداء المذهل

لكن هل هذا هو المراد؟

هل تلك هي علاقة الصحبة المنشودة؟

هل من الطبيعي تجاه آيات مثل التي تُقرأ هذه، والتي تحمل ترهيبًا وتدعو للتفكر ومراجعة النفس، أن تستقبل بمظاهرة إعجاب وتهليل؟

وهل أُنزل القرآن لأجل ذلك؟

وهل تلاوة القرآن هدفها الاستمتاع والإطراب وهز الرؤوس؟

أعتقد أن إجابة تلك الأسئلة معروفة، وأعتقد أن هذا الموقف وأشباهه يلخصون تلك الآفة الكبرى التي يعاني منها أصحاب هذا النمط

آفة الانفصال بين الحقيقة والمظهر،

بين المراد والواقع،

بين المعنى والشكل،

وبين العمق والقشرة..

آفة إماتة حقائق الأشياء وجوهرها، لإحياء غلافها الخارجي والانشغال بالبروباجندا المحيطة بها.

تلك الآفة التي جعلت المستمعين يومًا في أحد المآتم، والقارئ يرتل قول الله حكاية عن فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢١-٢٤].

فإذا بهم يتصايحون قائلين: سبحانه!!

سبحان من؟!!

قطعًا لا يقصدون فرعون

هم فقط سمعوا كلمة «ربكم الأعلى»، وعليهم أن يردوا، وأن يظهروا تفاعلهم مع القراءة، وأن يتعالى الضجيج الذي يزيد الحواجز بينهم وبين ما أنزل القرآن لأجله.. الفهم.. ثم العمل بهذا الفهم!

لا يُستغرب إذًا أن يقول البعض «سبحانه» ردا على كلمة فرعون، ولا يُستغرب أن تتهلل الأسارير وتعلو صيحات الإعجاب في مقابلة آيات تتحدث عن الموت والبرزخ والقيامة، إنها عزلة المعاني، وإماتة الحقائق وتفريغها من مضمونها

تفريغ كل شيء بالإغراق في المظاهر الصاخبة المحيطة به، وبالانصراف عن محتواه وحقيقته

وأخطر ذلك في نظري = تفريغ القرآن عن قيم التدبر والفهم والعمل بالانصراف لجماليات الصوت والأداء أو أي صارف آخر ليصير في النهاية نوعًا من الطرب يخلو من قيم التغيير والمصاحبة الحقيقية

وإن بداية تغيير هذه الحالة تكون بتصحيح النظرة للقرآن، ومن ثم تصحيح العلاقة وتحويلها إلى مصاحبة حقيقية ومعرفة تتعمق تدريجيًّا بالتدبر والفهم الذي يثمر عملًا..

مصاحبة كتلك التي كانت بين أصحاب القرآن وصاحبهم..

ها هو سيدنا عباد بن بشر كنموذج لتلك الصحبة الخاصة يقف في الحراسة ليلة إحدى الغزوات بينما رفيقه يأخذ قسطا من الراحة

لا يضيع عباد وقتا حتى في مثل هذا المبيت الشريف

ركعات قام يصليها لله في جوف الليل يتلو فيها آيات من كتاب ربه

يدركه أحد المشركين ويراه على تلك الحال من الخشوع فيرميه بسهم

في ضلع من أضلاعه يجد السهم مستقرًّا لكن بعد أن يكسر شيئا من العظام سبقها تمزيق للحم صدره

لا شك أن الألم رهيب

ألـم كسر الضلع قد لا يحتمل

إلا أن اللذة التي كان يتقلب فيها كانت تفوق أي ألـم!

ما هذا الذي يفعله؟

حقًّا عجيب أمره!

لقد نزع السهم و...

أكمل صلاته..

وتلاوته

ما كان من المشرك إلا أن عاجله بسهم آخر

ثم بسهم ثالث

وفي كل مرة ينزع السهم ولا ينتزع نفسه من صلاته

بعد حين أدرك أنه مقتول لا محالة لا محالة وهو يكاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة

سينكشف الجيش من قبله

لعله يسترجع قولة الصحابي سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي

يركع بسرعة وأنهى صلاته بين دفقات دمائه

ثم يوقظ رفيقه في الحراسة

ها قد زال الخطر وفر العدو

يسأله رفيقه في دهشة وقد رأى كثرة السهام التي انهالت عليه: هلا أهببتني من نومي من السهم الأول؟!

هنا تأتي الإجابة

إجابة الصاحب المحب:

كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا

وَأَيم اللهِ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا

إنه موقف يلخص معنى الصحبة ودرجة الارتباط الوثيق التي يمكن أن تكون بين المرء وبين كتاب ربه

بهذا عاشوا

ولهذا سادوا

وبصحبة ذلك الكتاب قدموا أعجب الأمثلة وأروع نماذج البطولة والفداء التي لم تكن لتخرج منهم لولا تلك المعجزة التي هي الأعظم على الإطلاق

معجزة القرآن

إن عباد بن بشر لم يكن يفتعل أو يتكلف بلسانه وقد خطت دماؤه الصادقة ذات المعاني التي تكلم بها

إنه فعلًا لا يريد أن يغادر السورة التي يتلوها

لا يطيق مفارقة آيات الله ولا يصبر عن مجافاة صاحبه القرآن

إنه نموذج لدرجة من درجات الصلة التي بلغت قوتها مبلغا امتزاج الروح بالجسد

صلة كانت لها الأولوية المطلقة في مواجهة كل نوازع النفس

فقط تراجعت تلك الأولوية حين خشي الضرر

ليس ضرر نفسه... بل ضرر على الأمة وانكشاف للثغر

أما هو فلقد تراجعت أولويته بجوار القرآن

وقدمت صحبته على حياته نفسها وأثبت صدقه بلحم ممزق وأضلع متكسرة ربما أذهب آلامها ذاك الانغماس في التدبر والتبتل والتأمل والاتصال الروحي بكلام مولاه

يالها من محبة

وياله من محب

محب يستحق أن يلاقيه القرآن يوما بتلك البشرى وذلك الفضل

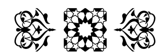
أن يكون هو صاحبك

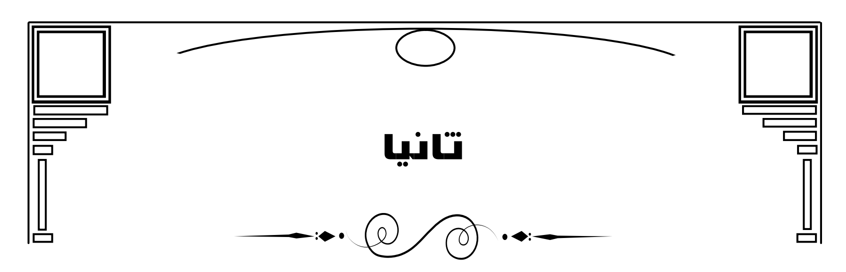
لن يكون ذلك إلا بتغيير تلك النظرة النمطية للقرآن، والانتباه إلى طبيعة العلاقة التي تجمع بين المسلم وبين آيات ربه.

تلك العلاقة التي يصعد المسلم درجاتها عبر سلم المدارسة والتدبر والتعرف والتي سأحاول في هذا الكتاب أنا أفتح بعض أبوابها وأستعرض معك عزيزي القارئ شيئًا من وسائلها لعلنا نصل سويًّا لتحقيق تلك الدرجة العظيمة

أن نكون للقرآن أصحابًا وأن نُرزق في النهاية سماع تلك الجملة الرائقة من كتاب ربنا حين يلقانا يوم البعث فيبشر كلًّا منا قائلًا: أنا صاحبك..

صاحبك القرآن





تمهيد...

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

تأمل جيدًا ذلك الأمر القرآني بالتذكرة

يذكر بماذا؟

بالقرآن

تلك القيمة التي تجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله مواعظ الواعظين وتذكرات الداعين ونصائح الحريصين وتوجيهات المربين

قيمة التذكير بالوحي

هكذا لخصت الآية الكريمة الأمر ببساطة ووضوح

بالقرآن

بكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

كثيـرًا مـا يكـون مفتـاح شخصـية الإنسـان وسـبيل تغييـره - فقط - في التذكير بالقرآن

القرآن وحسب.

دون وسيط أو إضـافة أو تكلـف أو كثيـر مـن كـلام البلغـاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى ولا نقلل منها ولا من أثرها لكنها لن ترقى أبدا لذلك العلاج الرباني

القرآن

رغم ذلك فإن قليلًا من الناس من ينتبه وقليلًا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية..

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يُخلَّى بينك وبين كلام ربك مباشرة وأن تصحبه بلا وسيط..

تصحبه ليخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك

لكن هذا لا يحدث لكل من يقرأ القرآن بل كثيـرًا مـا يشتكي القارئ من عدم التأثر ويجد جدرانًا تحول بينه وبين آيات ربه

وإن الآية التي صدرت بها هـذا التمهيد تبين أن ثمة شرط لوقوع التذكرة وتأثيرها

﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

إذا نخلص من ذلك الشرط أن حدوث التذكرة والتأثر بالقرآن يستلزم وجود قلب حي يتأثر بالموعظة القرآنية وتهز أركانه تلك المعاني المبهرة المبثوثة من خلال الوحي الكريم

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق:٣٧].

هكذا قالها الله واضحة جلية في آية أخرى

من كان له قلب

هذا هو من يتذكر

قلب سليم ابتداءً

قلب يخشى الله ويتقيه

قلب يخاف الوعيد

إنها مرحلة مهمة يطيب لي تسميتها بمرحلة ما قبل التلاوة

نعم... في رحلة إقامة صحبة مع كتاب الله ثمة مراحل

يمكننا أن نجمل تلك المراحل في ثلاثة رئيسية

من خلال الآية السابقة تتبين لنا مرحلتان من تلك المراحل الثلاثة

مرحلة ما قبل التلاوة

ثم مرحلة أخرى أثناء التلاوة

وفي آيات أخرى كثيرة تظهر مرحلة ما بعد التلاوة وهي مرحلة خروج الثمار والعمل بما انتفع به في المرحلتين الأوليين

في هذا الكتاب إن شاء الله سنتعرض بالتفصيل للمرحلتين الأوليين ونمر بإجمال على الثالثة في الفصل الختامي الذي سيكون مقدمة للجزء القادم من هذا الكتاب بإذن الله

في الفصول المقبلة سنحاول التعرف على ما ينبغي لطالب الصحبة القرآنية أن يفعله قبل التلاوة وأثناءها

كيف يمكن الوصول للقلب السليم الجاهز لتلقي معاني القرآن

المحل الصالح لتلقي الوحي والتأثر به

هذا القلب السليم ليس متوفرا بشكل دائم..

بل هو في الحقيقة من الندرة بمكان!!

فما العمل إذًا إن لم يتوفر هذا النوع من القلوب؟!

وهل على مفتقد القلب أو صاحب القلب القاسي -وما أبريء نفسي- أن يفقد الأمل في حدوث التغيير المنشود من خلال القرآن؟

الجواب لا

ثمة وسائل كثيرة لإقامة القلب السليم وتأسيسه

لكن قبل إقامة أي بناء لابد من النظر إلى الأرض التي سيقوم عليها

طبيعتها

نوع التربة وتحملها

هل هناك عوائق أو موانع تحول بيننا وبين التأسيس؟

هل تحتاج التربة إلى تنظيف أو تجهيز؟

هل هناك آثار بناء قديم متهالك تستلزم إزالة؟

هذا ببساطة ما ينبغي فعله مع القلب قبل قراءة القرآن

التخلية من المعوقات والحواجز

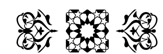
الإعداد والتجهيز للبناء المقبل

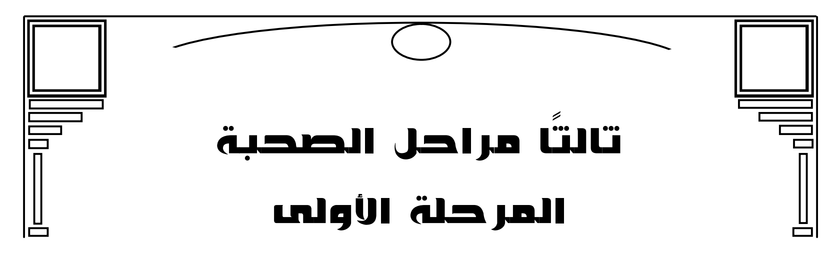
تصحيح وتنظيف وتخلية المحل الذي سيقوم عليه الصرح المأمول

صرح صحبة القرآن

وهنا تأتي المرحلة الأولى في مصنفنا هذا

مرحلة ما قبل التلاوة





ثالثًا مراحل الصحبة

المرحلة الأولى

ما قبل التلاوة



١. تخلية وتهدأة



القلب...

ذلك العضو الذي تحدثنا في التمهيد السابق عن كونه المحل الأولي لتلقي الوحي والتأثر به ومن ثم حدوث الذكرى التي هي من أهم مقاصد التلاوة

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

في أكثر من آية بيَّن لنا ربنا جَلَّجَلَالُهُ أن القلب هو محل التنزيل الأول

- ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

- ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٩٧) ﴾ [البقرة:٩٧].

تأمل اللفظ المتكرر

﴿ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾

لكن هل هو ذات القلب الذي يشكو أكثرنا من قسوته ويتساءل في دهشة لماذا لا يخشع ولماذا لا يشعر بمعاني القرآن الذي يتلى عليه ولماذا لا يدفع ترتيله بدمعات الخشية إلى عينيه دون أن ننتبه إلى أن السبب يرجع أساسا إلى تلك المرحلة التي نتحدث عنها في هذا الجزء

مرحلة ما قبل التلاوة

في هذه المرحلة لابد ابتداء من التخلية قبل التحلية

تخلية القلب من الشوائب والعوائق ليكون جاهزا للتحلية بمعاني الوحي

وإن تخلية القلب وتنظيفه إنما تكون أولا بإزالة عوائق الذنوب والآثام التي تشكل جدارا منيعا يحول بين القلب وبين معاني القرآن وثمرات تلاوته

جدار الران

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤].

إذًا الخطوة المبدئية في رحلة ما قبل التلاوة وتجهيز القلب هي ببساطة تتلخص في كلمة واحدة

التوبة

توبة تغسل آثار الذنوب وتمحو أدران المعاصي وتحطم جدار الران ليتسرب نور الوحي

والتوبة مهمة حياة مستديمة لا يفترض أن ينفك عنها المسلم لكنها بين يدي الطاعات تحتل مكانة خاصة

خصوصًا بين يدي القرآن

في مرحلة ما قبل التلاوة عليك أن تحاول التجهز بالتوبة والاستغفار وربما إيقاظ القلب بموعظة رقيقة أو تذكرة يسيرة

لكن القلوب منشغلة بأمور أخرى كثيرة لا يشترط أن تكون

معاصي أو آثام

الشـواغل الطاحنـة تشـكل أحـد الحـواجز التـي لابـد مـن تجاوزها في رحلة إعداد القلب للتلاوة

ولتوضـيح فكـرة إعـداد القلـب قبـل الإقبـال علـى الطاعـات المختلفة يطيب لي دوما الاستعانة بمثال (المروحة)

هل تأملت يومًا تلك المروحة التي تتوسط سقف غرفتك أو أي غرفة من غرفات منزلكم العامر بعد أن أطفأتها؟

هل لاحظت أنها رغم إغلاقها تحتاج إلى وقت حتى تتوقف تماما؟

نعم.. إنه ذلك القصور الذاتي الذي يجعلها تستمر في الحركة لوهلة ثم تتباطأ رويدًا رويدًا حتى تهدأ أذرعها وتتوقف تماما..

ماذا لو حاولت إيقافها أو تهدأة حركتها بـالقوة بينمـا هـي لـم تزل تدور بكامل سرعتها؟

سيحدث طبعًا نوع من أنواع الاصطدام العنيـف بـين اليـد أو الأداة التي حاولت إيقافها وبين ريشات المروحة المتسارعة

اصـطدام ربمـا لا تحمـد عقبـاه وربمـا لا يـتمكن مـن إيقـاف

حركة المروحة قبل أوانها

كل جسم متسارع الحركة يحتاج إلى وقت حتى يهدأ إلا أن يوقف بصدمة عنيفة لا تضمن مآلاتها

وكذلك القلب...

ذلك العضو الذى تدور نبضات همومه وانشغالاته اليوم بسرعة رهيبة توازي سرعة الأحداث والاهتمامات والمخاوف والمرجوات التي لا تهدأ أبدًا...

إن مروحة المشاغل والهموم والاهتمامات التي تدور ريشاتها بداخل ذلك القلب بشكل محموم تحتاج إلى بعض الهدوء لتتمكن نسمات الوحي من تلمس طريقها إلى داخل الروح

يحتاج الراغب في مصاحبة القرآن وتدبره إلى أن يتلقى آياته وقلبه في حالة أهدأ وأشد تركيزًا من حالته الآنية..

يحتاج إلى أن يقف في صلاة القيام متدبرًا معاني الذكر الحكيم الذى يتلوه أو يتلى عليه..

يحتاج إلى أن يذوب قلبه من خشية الله وهو يلهج داعيًا إياه

بينما يتقلب في الساجدين..

لأجل ذلك يحتاج هذا القلب إلى هدوء وسكينة ويحتاج صاحبه إلى صدر سليم وعقل واعٍ وذهن صاف مهيأ لاستقبال معانى المعجزة التي سيتلوها أو ستتلى عليه

ولكي يصل القلب إلى هذه الحالة من الجهوزية ويشبع تلك الاحتياجات لابد له أن يبدأ مبكرًا قبل التلاوة ولو ببرهة لعل معدل تسارع همومه الدنيوية ينخفض تدريجيًا حتى يصل إلى حالة السكينة والسلام الروحي المطلوب

إن تلك الحالة المنشودة لن تتأتى إلا بانطلاقة مبكرة تحرر القلب شيئًا فشيئًا من هذا البحر متلاطم الأمواج الكفيل بتحويل أرق القلوب إلى حجارة صلدة قاسية

لا أقول بوجوب أن ينعزل المرء كلية في كل مرة إذا أراد أن يتلو كلام الله ولا أن يكون بمنأى عن قضايا أمته أو عن أحواله الشخصية ومشاكله وهمومه..

إنني أتحدث ببساطة عن نصيب كل منا من قلبه الذي سيأتي يوم لا ينفعنا فيه إلا سلامة ذاك القلب

﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

أن تقتلع نفسك أحيانًا من مستنقعات المراء والعوارض الذي لا يقدم أكثرها ولا يؤخر سواء تلك التي ترقبها عبر الشاشات أو ما تكون أنت طرفا فيه لتخلو..

نعم أحدثك عن نصيبك من الخلوة

عن محراب تعبد تغيب فيه عن الخلق لبرهة وإن قلت

لتستمتع بخلوة من ربك جَلَّجَلَالُهُ

لحظات أنس لا تُشترى بأموال الأرض يكون جليسك فيها القرآن

إنها لكنوز

كنوز الخلوات

تلك اللحظات التي أدرك قيمتها المحبون وتلمسها الصالحون وقدرها حق قدرها العارفون في كل زمان ومكان

✍ **قال الحسن البصري** رَحِمَهُٱللَّهُ: إن كان الرّجل لقد جمع القرآن وما يشعر به النّاس، وإن كان الرّجل لقد فقه الكثير وما

يشعر به النّاس، وإن كان الرّجل ليصلّي الصّلاة الطّويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السّرّ فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدّعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلّا همسا بينهم وبين ربّهم وذلك أنّ اللّه تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف:٥٥]، وذلك أنّ اللّه ذكر عبدًا صالحًا رضي فعله فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:٣].

تأمل الكلمة...

خفيًّا!

لقد كان النداء خفيًّا

هذا هو وصف القرآن لنداء زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

لعمري كم يحتاج كل عابد للحظات مثل هذه التي تهدأ فيها مروحة قلبه..

لسويعات خلوة مع الخالق لا يقطع صفوها مخلوق

لأسوار من الحرص، وسياجات من العزم، وسواتر من

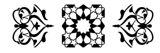
الإخلاص والصدق، تحوط محراب عبوديته..

ليس شرطًا أن يكون محرابًا كمحراب داوود، أو محاريب ولده سليمان، أو محراب مريم أو كفيلها زكريا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ..

ولا يلزم أن تكون صومعة كصومعة جريج، أو غيره من العباد والنساك..

لكنها بيئة خلوة يعد فيها قلبه لما هو مقبل عليه

لتلقي كلام ربه جَلَّ جَلَالُهُ



٢. ربيع قلبي

الدعاء والتضرع إلى الله أن يهبك علاقة حسنة مع كتابه = أحد أهم خطوات الإقبال على تلاوة القرآن في مرحلة ما قبل التلاوة

لقد جرى العرف على ربط الدعاء بختام القرآن وهو من فعل بعض الصحابة رضوان الله عليهم

لكن الأثبت والأصح عن النبي ﷺ دعاء مطلق لعل سياقه سابق للتلاوة بعموم

إنه دعاء بعلاقة خاصة جدًّا مع القرآن

ولخصوصية تلك العلاقة التي طلبها رسول الله ﷺ كان يستفتح هذا الدعاء بتضرع من أبلغ وأجمع وأخشع ما استفتح به دعاء

لقد سأل الله بين يدي دعائه المتعلق بالقرآن بكل أسمائه الحسنى

ما علمنا منها وما لم نعلم

سؤال تقدم بين يديه تذلل وافتقار وانخلاع عن كل حول وقوة

«اللهمَّ إنِّي عبدُك ابنُ عبدِكَ ابنُ أمَتكَ ناصيَتي بيدِكَ ماضٍ فيَّ حكمُكَ عدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ»

هكذا بدأ بتجرد من كل حول وقوة

إنما أنا عبد ابن أمة وعبد

بعد ذلك أتى وقت السؤال والتوسل

أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هو لك

سمَّيتَ به نفسكَ

أو أنزلتَهُ في كتابِكَ

أو علَّمتَهُ أحدًا من خلقِكَ

أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندِكَ

تأمل الثناء الجامع والتوسل الذي يقطر من كل حرف منه انكسار ومسكنة

لكن لماذا كل هذا؟

ببساطة لأنه كلما عظم المطلوب = عظمت معه صيغة الطلب وتجلى التذلل في السؤال

والمطلب هاهنا فعلا عظيم

أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي

أن يكون القرآن ربيع القلب

ونور الصدر

وجلاء الحزن

وذهاب الهم والغم

فإن صار القرآن كذلك في القلب وأينعت ثمرات ربيعه = كانت جنة الدنيا وبهجتها وزوال كربها وانفراج همها وبعدها بإذن الله جنة الآخرة

أن يكون القرآن ربيع القلب فهي البهجة

أن يكون ربيع القلب فثم الجمال والاعتدال والصفاء والنقاء وجميل الخصال

لذا استحق ذلك المطلب أن يقدم له بتلك الصياغة الباهرة والتضرع الكامل

لكـي تـدرك قيمـة هـذا الـدعاء عليـك اسـتدعاء معـاني تلـك الكلمة التي اختارها النبي ﷺ وصفًا للعلاقة المنشودة بالقرآن

ربيع..

حين تسمع كلمة ربيع ألا تتسارع إلى نفسك مشاهد جميلة؟

ألا تتبادر أمام ناظريـك صـور بديعـة لأغصـان مزهـرة وثمـار يانعة وورود ملونة وظلال وارفة يتخللها ضياء الشمس المشـرقة التي تتوسط تلك السماء الصافية لا يكدر صفوها شيء؟

ألا تملأ ذهنك ذكريات النقاء والجو الصحو والنسيم العليل الذي تداعب ذكراه ثنايا روحك لتبعث في أرجائها شعور يلخص تلك الحالة

شعور البهجة ..

تلك البهجة التي يجدها من أجاب الله دعـاءه وجعـل القـرآن ربيع قلبه

لو أن في الدنيا مثالًا يقرب إلي أذهاننا جنة الفردوس = لكـان مشهد تلك الحدائق الغناء في ذلك الجو الربيعي الصـحو النقـي، والنسيم العليل الذى تتمايـل لـه أغصـان الأشـجار المثمـرة التـي

تستقر في تناسق بديع على ضفتي نهر جارٍ تتفرع عنه جداول بديعة تنساب مياهها العذبة بلطف لتسقى تلك الزروع الممتدة على مرمى البصر

ذلك هو أقرب ما يسارع إلى التصور الإنساني البسيط إذا ما قرر أن يغلق عينيه ويشرد بذهنه متخيلا جنة الخلد مشوقا قلبه إلى لقياها

فالربيع جمال ورونق وحسن وبهاء

الربيع جنة في الدنيا

وكذلك القرآن إذا ما خالطت بشاشته القلب فصار ربيعًا له

حينئذ تدرك معنى كلمة الرجل الصالح: إن جنتي وبستاني في صدري

إنها جنة القرآن..

ربيع القلب

وفي اللغة من معاني الربيع كذلك جدول الماء العذب الرقراق

والقلب الذي ربيعه القرآن هو قلب صافٍ أشبه ما يكون بقلوب أهل الجنة منزوعة الحقد والغل والحسد

القلـب الـذي ربيعـه القـرآن قلـب وضـيء متوضـئ بالنقـاء والتسامح متطهر بالعفو ومحبة الخير لإخوانه كما يحبه لنفسه

وهو قلب نظيف كنظافة جدول عذب تنساب مياهه في هدوء لطيف لتسقى تلك الزروع الممتدة عن اليمين والشمائل في سقاء لا يكاد ينفد

سقاء المعاني القرآنية والقيم الرسالية

والاعتدال كذلك من خصائص الربيع

ذلك الفصل المعروف الذي يميـزه التوسـط فـلا هـو بالحـار القائظ ولا هو بالبارد القارس

قصد بين الأمرين..

فأن يكون القرآن ربيع القلب = ذلك يلقي في الروع معنى من معـاني الاعتـدال والقصـد أيضًـا لكنـه اعتـدال في الفهـم وقصـد في السير وتوسط في التصور وصـدق حبيبنـا القائـل «**القصـد القصـد تبلغوا**»

والربيع فصل النقاء والصفاء ..

ويشـتهر الربيـع أيضًـا بالإثمـار وتفـتح الـورود ومورقـات الأزهار

وقلب ربيعه القرآن هو قلب مثمر مزدهر مبارك

كلما عرض عليه القرآن تفتحت فيه أزهار الفهم وأورقت فيه أشجار المعرفة والعلم بالله وأينعت فيه ثمرات العمل والمعاملة والحياة بالقرآن

إنه قلب ممتلئ بالخير حتى أنه يفيض منه على غيره ويتكرم بثمراته ليطعم منها الخلق وتمتلئ بها آنية قلوبهم كما كانت تمتلئ سلال قوم سبأ بمجرد مرورهم تحت أشجار جنتيها المثمرة

إن القلب القرآني يأبى أن يحبس ذلك الربيع المثمر بداخله ويصر على أن ينتفع الخلق بتلك الثمرات التي ستفيض عن حاجته لا محالة

فقط إن كان القرآن فعلًا ربيع قلبه

ثم يكمل رسول الله ﷺ مسألته مفصلًا مزيدًا من العلاقة المنشودة بالقرآن

ونورَ صدْري

النور..

أحد أهم الأوصاف التي وُصف بها القرآن

ذلك الأصل الذي هو من أظهر الأصول ومن أوضح الصور التي يرسخ القرآن لها ويغرس حقيقتها في النفوس في تسع وأربعين موضع جاء فيه لفظ النور بدلالات مختلفة جلها يدور حول معنى الوحي

الوحي هو الضياء الذي يكشف للإنسان دربه ويبين له معالم طريقه

﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢].

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ [الأنعام:١٠٤].

هل نظرت إلى القرآن من قبل هذه النظرة؟!

وهل دعوت الله بقلبك قبل لسانك أن يضيء لك الطريق بنور الوحي؟

هل تأملت بينما تقرأ أن ما تتلوه من آيات وما تتدبره من معانٍ هي بصائر؟!

أنوار كاشفة تضيء للإنسان عتمة الطريق وتبين له سبيل الهدى الرشاد

منبع البصر ومحل الرؤية الصحيحة الواضحة التي تنتشل المؤمن من الأخرى

الظُلمات..

من دون نور القرآن الذي يستضيء به الإنسان وتلك البصائر التي يهتدي بها = ستكون الظلمات

سيتخبط المرء لا محالة في عتمة كالحة وظلام دامس

وهذا هو الأصل المكمل والصورة المقابلة

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

إنها المقابلة الحاسمة بين حي يسير في الضياء ويمضي بنور من الله وآخر ميت خاوي النفس منزوع الروح حبيس بين أمواج ظلمات كالحة

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

- ظلمات الشك والنفور
- ظلمات الهوى والاستسلام لقيود الشهوة
- ظلمات الفجور والعصيان
- ظلمات الشرك والجحود والنكران

حالة مؤسفة هي والله

حالة من عرض عليه النور فأبى

من اختار الظلمات وعاين حسرتها في الدنيا قبل الآخرة

تلك الحسرة البغيضة والغصة المريرة وذلك الألم القاسي الذي يعرفه جيدا كل من ذاق وعرف ثم لم يغترف.

لم يغترف من نور الوحي

وأول خطوات الاغتراف من هذا النور كما ترى = أن تدعو..

تطلب

تسأل الله أن يجعل القرآن نور صدرك

ليس هذا وحسب

بل وجلاءَ حزني وذهابَ همِّي وغمِّي

مزيد من المطالب التي يشير من خلالها النبي ﷺ إلى حقيقة السعادة وسبب زوال غموم الدنيا وهمومها

القرآن..

الأمر ممكن والبعض بالفعل أدركه وعاينه وتقلب في حدائق بهجته وبساتين لذته

الدنيا ليست شقاءً خالصا كما يظن البعض بل يمكنك أن تجعلها جنة وأن تتذوق طعمًا مختلفًا للسعادة وتطرق أبوابًا أخرى تنال بها شيئًا من تلك الحياة الطيبة

هنا... في الدنيا

يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه:٢].

ويقول أيضًا في نفس السورة: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣].

ومرة ثالثة في قوله عن الشيطان: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧].

والملاحظ هنا أن الشقاء نفي في موضعين بالسورة وأثبت في موضع

نفي حال ملازمة القرآن واتباع منهج الله وهداه وتلك جنة الأرض

وأثبت الشقاء حال الخروج من جنة السماء حال الاستجابة لنزغات الشيطان

والمعنى الذي يتجلى بجمع هذه الآيات أن الشقاء إنما يكون خارج الجنة والنعيم يكون فقط داخلها

وذلك في الدنيا قبل الآخرة

نعم قد تعجل مثوبة في الدنيا كما قد تعجل عقوبة

قد يظن الناس أن الفاسق منعم مستمتع تمامًا وهو معاقب دون أن تشعر أو يشعر هو نفسه

من العقوبات العاجلة التي قد لا يلحظها الخلق = أن ينطفئ نور القلب وتخيم عليه الوحشة والظلام.

أن تغادره السعادة بغير رجعة ويرحل عنه الرضا بلا عودة وتتركه السكينة وتجافيه الطمأنينة

قد لا تدرك حقيقة كونه يعاقب وقد يشوش على حالته غلاف البهجة المصطنعة والمرح الزائف لكن ذلك في حقيقة الأمر ما هو إلا مجرد قشرة زائفة تحجب نيرانا تضطرم في قلبه وتتلظى بهت روحه وتحترق بها نفسه

نيران كآبة المعصية والمعيشة الضنك

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

تأمل الكلمة

﴿ضَنكًا ﴾

هذا هو شعار حياته

ضيق وحزن واكتئاب واختناق

يحاول الخروج من تلك الحالة بمعصية أخرى وترفيه من نوع مختلف فتزداد الكآبة والاختناق

ذلـك لأنـه لـم يـدرك ببسـاطة أنـه يُنبـه وأن مـا هـو فيـه بدايـة العقوبة

يتسـاءل دائمًـا عـن سـر ذلـك الحـزن وذلـك الظمـأ الـذي لا يرتوي ولا يجيب نفسه أبدًا بالحقيقة

أن معاصيه هي السبب

أنه ببساطة = يعاقب

يعاقب بالضنك والشقاء

والسبب أنه أعرض عن منبع السعادة والطمأنينة

عن الذكر

الوحي

القرآن

وإن هـذا الشـقاء يقـل بـل قـد ينعـدم قلبيـا كمـا انعـدم في جنـة الآخرة

ينعـدم حـال المكـث في جنـة الـدنيا التـي حـدثنا عنهـا العبـاد والصالحون وكرروا ذكرها والتـي هـي في الحقيقـة الطريـق لجنـة الآخرة حيث لا شقاء ولا نصب ولا وصب ولا جوع ولا ظمأ

جنة الصلة بالوحي..

بالقرآن

لذا ختم النبي ﷺ دعاءه بهذه البشرى لمن دعا وبإذن الله استجيبت دعوته

ما دعا أحد بهذا الدعاء إلَّا أذهب اللهُ همَّهُ وأبدلَهُ مكانَهُ فرحًا

تخيل أن تُقبل على تلاوة القرآن بهذه النفسية وبعد تأمل مقتضيات هذا الدعاء الجامع

لا أقول أنه ينبغي عليك كلما هممت بالقراءة أن تدعو بهذا الدعاء وإلا صرت أبتدع طريقا لم يأمر به النبي ﷺ

أنا فقط أحدثك عن الأصل

تريد صحبة القرآن وفهمه وتدبره

تبتغي آثار التلاوة وثمارها المبهجة

تأمل أن يرزقك الله حسن تلاوة القرآن والعمل بما فيه

سله إذًا

اطلب منه

تضرع إليه

وهو سبحانه لا يرد سائلا مخلصا

والظن به أن يرزقك ويكرمك

❁ ❁ ❁

٣. استشعر حاجتك

﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [طه:١٢١].

هذا المشهد القرآني يخلص تلك الحالة التي تملكت سيدنا آدم وزوجه بعد أن ذاقا ثمار الشجرة المحرمة

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١].

حالة من الندم والذهول مما بدا لهما وكان قد ووري عنها من قبل

في بعض الآثار أن سيدنا آدم جعل يسعي يمنة ويسرة لا يدري إلى أين سيذهب وكيف سينجو يصلح تلك الزلة

إنهما بحاجة إلى حل عاجل

إلى إرشاد لطريق التصحيح

إلى توجيه لعمل ينجيهم من مآل ما اقترفا وعاينا..

لعل ذلك الاحتياج قد تضاعف بعد السؤال الإلهي والنداء الرباني

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:٢٢].

رب العالمين ينادي!

ملك الملوك يعتب!

الخالق الذي كرمهما يذكرهما بالنهي الذي نسيا والحرمة التي انتهكا

لابد من سبيل نجاة وإلا كان المصير المحتوم

الخسران..

﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣].

تلك هي الكلمات التي كان الحل يكمن فيها

الكلمات التي تلقاها آدم والتي كان أحوج ما يكون إليها

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

تأمل هذا الاحتياج لكلمات الله

احتياج سبق تلقيها واحتياج أثناء تلقيها واحتياج احتواه معناها حيث جعل الخسران قرين عدم المغفرة

لا نجاة إلا بكلماتك يا رب

ولا فلاح إلا بمغفرتك

ولا حيلة إلا برحمتك وهدايتك

هذا الشعور بالاحتياج إلى القرآن هو من أهم عناصر مرحلة ما قبل تلاوة القرآن

أن تدرك قيمة ما أنت مقبل عليه وأن تتذكر مدى احتياجك إليه

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣].

هكذا قالها لنبيه ﷺ صريحة قاطعة

كنت من قبله من الغافلين

وأنتم جميعًا أيها المؤمنون

من دون القرآن ليس إلا الغفلة

بل وأكثر من ذلك

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

من دون القرآن أنتم في ضلال

في غفلة

وفي ظلمات

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

هذا هو فعل القرآن في البشر ببساطة ووضوح

التغيير للأفضل

الانتقال من الظلمات إلى النور

من الضلال إلى الهدى والرشاد

هل أدركت مدى احتياجك؟

هل لمست مقدار افتقارك؟

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥، ١٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢].

يتكرر اللفظ والمعنى ويتقرر المقصد

يهدي به

نهدي به من نشاء

وأنت تحتاج الهداية

تطلبها في صلاتك كل يوم على الأقل سبعة عشر مرة

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

وهذا الذي أنت مقبل عليه هو محل الهداية

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩].

تدخل على القرآن بهذه النفسية وذلك الاحتياج وكلك يقين أنك مقبل على ما يغيرك للأفضل

لقد قال الله ذلك عنه بكلمات محكمة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد:٣١].

تقدير الكلام لكان هذا القرآن هو الذي يحدث تلك التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال وتقطيع أرض وتكليم موتى فإن كانت تلك قدرته التغييرية على تلك الكائنات والأفعال الكونية الجسيمة بل وما هو أعظم منها فما بالك بقدرته التغييرية على قلبك ونفسك إذا صاحبته

كم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس كانت ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب

كم من بعيد عن الله مسرف على نفسه متبع لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره

۞ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبيٍّ، إلا وقد أُعطَى من الآيات ما مِثلُه آمنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ**» صححه الألباني في «صحيح الجامع»

ما أنت مقبل على تلاوته والاتصال به هو المعجزة الأقوى من عصا موسى وإحياء عيسى ورياح سليمان وجِنّه المُسخر

إنه الآية الأعظم من ناقة صالح والحديد الذي لان لداوود والفُلك التي حملت نوح عليهم جميعا أفضل الصوات وأزكى التسليمات

القرآن أقوى من كل آياتهم ومعجزاتهم التي بمثلها آمن الناس

وموطن هذه القوة هي تلك القدرة التغييرية المذهلة التي لولاها ما كانت هذه البطولات المبهرة ولا الأمجاد المذهلة

لولا القرآن...

كلما طالعت شيئًا من تضحيات أصحاب النبي ﷺ أو سمعت طرفًا من سيرتهم العطرة ومواقفهم العظيمة ثم انبهر

قلبك وخيم الذهول على روحك وسيطرت الدهشة على نفسك = فتذكر تلك الكلمات

لولا القرآن ما كان شيء من هذا

القرآن هو ما صُنعت به تلك البطولات المبهرة وصيغت منه تلك النفوس النبيلة

القرآن هو السبب في صمود خالد بن الوليد في غزوة مؤتة حتى تتكسر في يده تسعة سيوف ولا ينكسر عزمه

القرآن هو السبب في إيجاد أنس بن النضر لريح الجنة من دون أحد وثباته حتى يتمزق جسده كله مقبلا غير مدبر

القرآن هو ما جعل مصعب بن عمير وجعفر بن أبي طالب يفضلان أن تقطع أيديهم وتراق دماؤهم ولا تسقط تلك الراية التي تعلن علو هذا الدين وكتابه العظيم

لولا القرآن ما ثبت هؤلاء

لولا القرآن ما صبروا ولا تجلدوا

لولا القرآن ما أصابت عاصفة التغيير ظاهرهم وباطنهم وما امتزجت رياحها بقلوبهم ومشاعرهم

وهل كانت أم سليم لتصبر على لأواء الحر والعطش في صحراء مكة بعد أن تركها المشركون لثلاثة أيام دون قطرة ماء لولا القرآن؟!

وهل كانت سمية لتأخذ بالعزيمة وتثبت على ملتها وتأبى أن تخرج من فمها كلمة الكفر حتى تطعن بالحربة في موطن عفتها ويسيل دمها كأول شهيدة في الإسلام لولا القرآن؟!

وهل كانت لتثبت زنيرة جارة عمر بن الخطاب قبل إسلامه والتي أحمي لها في النار حتى فقدت بصرها ولم تفقد إيمانها لولا القرآن؟!

وهل كان خباب بن الأرت رضي الله عنه ليتحمل إرقاده على الجمر المشتعل لا يطفئه إلا شحم ظهره لولا القرآن؟!

* كل الثبات
* كل البطولات
* كل الإنجازات
* كل الفتوحات
* كل ذلك ما كان ليحدث لولا القرآن

عندما تدرك ذلك ستقبل على التلاوة وأنت مستشعر ذلك الاحتياج

الاحتياج للحياة

نعم... من دون القرآن نحن كجثث هامدة بلا روح

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

تأمل المثل

ميت صار حيًّا له نور يتحرك به

نور القرآن..

تلك المقابلة بين حالة الحياة بحراكها وحرارتها وبين حالة الموات بسكونها وبرودتها

المتأمل في تلك المقابلة يعجب من هذا التضاد الرهيب والبون الشاسع بين الحي والميت وكيف أن الحال يتبدل وينقلب الوصف رأسًا على عقب بالانتقال من الأول إلى الثاني؛ فيخبو بريق الحياة في عينيه حتى يختفى تماما، وتتيبس الأطراف،

وتسرى في البدن تلك البرودة الصامتة، ويتحول في لحظات إلى جثة هامدة..

كيف انتقل من هذه الحالة إلى تلك؟!

بشيء واحد نزع منه فصار إلى ما صار إليه

لقد نزع السر الذى جعله الله من أمره وفي علمه

لقد نزعت الروح!

فلما نزعت حدث كل هذا الانقلاب في حال من نزعت منه.

الروح هي أصل وسر تلك الحياة التي تنبض في العروق، والبريق الذى يلتمع في العيون، والحركة التي يختلج بها القلب، والحرارة والحيوية التي تسري في جسد الحي ومتى ما نزعت خبا كل ذلك.

هل تتصور أن الله جل وعلا سمى الوحي المنزل بتلك الروح التي هي سر الحياة؟!

الله جَلَّجَلَالُهُ ذكر أن الوحي المنزل هو روح من أمره

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣].

لقد وصف القرآن بأوصاف كثيرة وبليغة فهو النور المبين وهو البيان والتبيان وهو الشفاء والرحمة للمؤمنين وهو الهدى والفرقان بين الحق والباطل وهو أحسن الحديث والموعظة والبلاغ وغيرها من الأوصاف والمسميات التي وصف الله بها كتابه العزيز وسماه بها.

لكن تسميته بالروح لها قيمة مختلفة في تجديد معنى الاحتياج

أن تشعر بأنك بصدد استمداد الروح التي من دونها ببساطة أنت أقرب للميت

القلوب من دون القرآن ميتة، والنفوس من دون القرآن يابسة متجمدة، والفكر من دون القرآن بارد ساكن.

ببساطة مؤمن من دون قرآن عبارة عن جسد خاوٍ من الروح.

هل نظرت من قبل للقرآن هذه النظرة؟

هل تفاعلت معه من هذا المنطلق؟؟

هل تعاملت مع كتاب الله علي أنه روح تحتاج إلى أن تبث في قلبك وتسمو بها نفسك وتسرى حيويتها في أوصالك

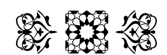
تلك الحاجة الملحة للعودة إلى القرآن عليك تجديدها بين يدي التلاوة

بل الحاجة إلى عودته إلى قلوب قست طويلًا حين ابتعدت وتناست تلك الحاجة التي ينبغي أن تكون دوما مُلِحَّة

الحاجة إلى الروح

إلى سر الحياة ومنبع النور

الحاجة إلى القرآن



٤. استهداء

لَمَّا ربنا يهدي؟!

هذه الجملة وهذا الفهم وذلك التعليق على ذلك الفعل الإلهي - الهداية = يستريح إليه كثير من الناس أو يريحون أنفسهم ويخدرون ضمائرهم ويسكتون أنفسهم اللوامة بتلك الحجة

لما ربنا يهدي...

حسنًا... ماذا فعلت ليهديك؟

هل أخذت بأسباب الهداية؟

هل سلكت سبلها؟

والأهم هل فهمت أصلا معانيها؟

هذه هي للأسف أهم الأسئلة التي قليلا ما يسأل المرء منا نفسه عنها!!

نعم.. هذه هي الحقيقة التي يصر أولئك المرجئون للهداية على تجاهلها

إن للهداية سبلًا وأسبابًا وطرقًا

وثمة تكليفات بشأنها

أهم تلك التكليفات ما يعرف بالاستهداء

طلب الهداية

السعي إليها

ثم قبولها واستحبابها واتباعها حين تأتيك

في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في «صحيحه»:
«**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته**...»

ها قد قامت الحجة لهم

أو هكذا يتصورون لأنهم ببساطة لا يكملون

نعم الكل ضال إلا من هداه الله

ومن يهدي الله فهو وحده المهتدي

لكن أين باقي الحديث؟

أين التكليف؟

ها هو يظهر واضحًا بعد تقرير تلك الحقيقة

حقيقة أن الهداية بيده سبحانه

«**فاستهدوني = أهدكم**»

هكذا الأمر إذًا

الهداية عليه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢].

والاستهداء عليك «**فاستهدوني أهدكم**»

هذا هو المطلب والتكليف الأول

وهذا ما اتضح بشكل مكثف في حياة النبي ﷺ ودعائه المأثور الذي علمنا إياه وأكثر جدًّا منه

دعاء الهداية

التضرع للوصول إليها

سؤال الله بأسمائه وصفاته كي يرزقنا إياها

❁ ظهر ذلك فيما علمه لابن عمه وصاحبه سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: «**قل اللهمَّ اهدِني وسدِّدْني. واذكر، بالهدى، هدايتَك الطريقَ. والسَّدادَ، سدادَ السَّهمِ**» صحيح مسلم

❁ وعنه أيضًا أن رسول الله كان يقول في استفتاح صلاته: «**اهدِني لأحسنِ الأخلاقِ. لا يهدي لأحسنِها إلا أنت**» صحيح مسلم

❁ وعن أبي سلمةَ بن عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ قال: سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين: بأيِّ شيءٍ كان نبيُّ اللهِ ﷺ يفتتحُ صلاتَه إذا قام من الليلِ؟ قالت: كان إذا قام من الليلِ افتتح صلاتَه: «**اللهمَّ! ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ. فاطرَ السماواتِ والأرضِ. عالمَ الغيبِ والشهادةِ. أنت تحكم بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدِني لما اختُلفَ فيه من الحقِّ بإذنِك إنك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ**» صحيح مسلم.

❁ وعن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: علَّمني رسولُ اللهِ ﷺ كلماتٍ أقولُهنَّ في قنوتِ الوترِ

«**اللهمَّ اهدِني فيمن هديتَ وعافِني فيمن عافيتَ وتولَّني فيمن تولَّيتَ وبارِكْ لي فيما أعطيتَ وقِني شرَّ ما قضيتَ إنك تَقضي ولا يُقضى عليك وإنه لا يَذِلُّ من واليتَ ولا يعِزُّ من عاديتَ تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ**» سنن أبي داوود

❁ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو قائلًا: «**اللهمَّ إني أسألُك الهدى والتقى والعفافَ والغنى**» صحيح مسلم

هذه الأحاديث وغيرها تبين بوضوح تلك القضية التي تشغل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يريد لها أن تشغل من تبعه بإحسان

قضية الهداية وطلبها

الاستهداء

إن أكثر دعاء مطلوب من المسلم تكليفا وفرضا لا تنفلا أو استحبابا هو دعاء الهداية

في كل صلاة بل في كل ركعة يقرأ فيها بأم الكتاب التي لا صلاة لم يقرأ بها إلا باستثناءات محدودة جدا = ستجد دعاء واحدا يتكرر أمامك ويلهج به لسانك ويفترض أن يتضرع به قلبك

إنه دعاء الهداية.

الهداية التي من دونها الضلال

لكى تعلم دقة هذا التكليف وخطورة هذا الدعاء وأهميته لابد أن تعلم طبيعة ذلك الشيء الذى تحتاج أن تهدى خلاله

إنه الصراط.

الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة

هذا الطريق المحفوف بالمخاطر في الدارين

في الدنيا حف هذا الصراط بالمكاره والشهوات والشبهات وامتلأ بالمزلات والفخاخ وتربص بك فيه الأعداء من كل جانب خارجك وداخلك

أبواب وسبل وستور مرخاة ودعاة على تلك الأبواب

وفي الآخرة الأمر أخطر والصعوبة أشد فصراط الآخرة كما وصفه النبي ﷺ «**دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس على وجهه في النار**» خرجاه في الصحيحين وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد الخدري بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف

فيمره المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا

هو إذا طريق محفوف بالمهالك ممتلئ بالأعداء من شياطين الإنس والجن ومن قبلهم النفس الأمارة بالسوء ثم كلاليب وخطاطيف ومهالك شتى

مثل هذا الطريق حرى بالمرء أن يتأهب فيه ويهاب سلوكه بغير معين

عندئذ يبرز ذلك الدعاء من قلب مفتقر وعقل يعي خطورة الأمر فيجأر به كل لحظة لمن يستطيع إعانته على وعورته

ويطلب تلك الهداية في الدنيا والآخرة

يستهدي

وللهداية معانٍ وأقسام لابد أن تدركها لتستطيع التفريق بين ما هو بيد الله وحده وما هو كسبي للإنسان دور واضح فيه

لقد أُثبتت صفة هداية الغير للنبي ﷺ في موضع ونفيت عنه في موضع آخر

أُثبتت في قول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

ونُفيت في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

ولا يوجد تعارض بين الأمرين ببساطة لأن الهداية هدايتان!

هداية إرشاد وتوجيه ودلالة إلى الخير وصراط الله المستقيم وتلك هي المثبتة للنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء ثم من سار على نهجهم وتلك التي رفضها أهل الباطل دومًا وقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾ [التغابن:٦].

وهناك هداية أخرى وهي بمعنى شرح الصدر للحق والتوفيق للخير وقبول تلك الدلالات والإرشادات وهذا النوع هو ما لا يملكه مخلوق ولا يطلع على موعد وحقيقة وروده على نفس المخلوق إلا الله الهادي سبحانه

وتلك الهداية التي ينبغي للعبد أن يطلبها ويفتقر ويضرع لربه داعيًا أن يرزقه إياها

أن يستهدي

المشكلة أن هذين النوعين يختلط أمرهما على كثير من الناس فيظن أن المسألة ليست كسبية مطلقا وأنه لا يوجد أدنى تكليف أو دور عليه وبالتالي يستريح ضميره ويرجئ الأمر ويسوفها متحججًا بذلك التعميم والإطلاق لهداية التوفيق التي لا يملكها إلا الله

والحقيقة أن ربنا لا يظلم أحدًا ومعاذ الله أن يكون الأمر عشوائيا وإلا كان اتهامًا ضمنيًّا لله

وحاشا وكلا

هناك أسباب يأخذ العبد بها وسبل يتبعها والله وعد هذا المخلوق -الإنسان- في بداية الحياة على هذا الكوكب بأنه إذا فعل واتبع هداية الدلالة والإرشاد التي ستأتيه وقبلها = فإن الله سيعطيه هداية التوفيق والسداد

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ﴾ [الرعد:٢٧].

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ

كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى:١٣].

تأمل القاعدة المتكررة

يهدي من؟

﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

ثمة عمل إذًا

هناك سبل للاستهداء منها الإنابة والعودة المستمرة إلى طريق الحق

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس:٩]

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:١٧٥]

الإيمان والعمل الصالح أيضًا من أسباب الهداية كما ترى

والأمر مطرد في القرآن والسنة

ثمة أفعال وامور على المرء فعلها ليحظى بهداية الله

فإن لم يفعل..

لقد اختار الضلال إذًا واستحب العمى

تمامًا كما فعلت ثمود

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت:١٧].

تأمل مرة أخرى قوله سبحانه ﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾.

كيف يصفهم بتلقي الهداية وهم قوم هلكوا على الكفر

ببساطة هي تلك الهداية الأولى

هداية الدلالة

ولقد نالتها ثمود وجاءهم بها نبي الله صالح

فماذا فعلوا؟

نقضوا التكليف وأعرضوا عما كان ينبغي لهم

لا هم استهدوا ابتداء ولا هم قبلوا واتبعوا انتهاء

ببساطة.. رفضوها..

هم من فعلوا

هم الذين استحبوا العمى وكرهوا الهدى وأعرضوا عنه فحرموا من تمامه ولم يبصروا نوره

وكذلك فعل كل من أعرض ونسي وتغافل فلا يلومن إلا نفسه إن لم يهتدي وبدلا من تخدير نفسه بمسكنات الإرجاء على موعد الهداية الذي يأت بعد والذي يتصور ألا سعي له ولا كسب = فليبحث عن السبب في صده وحجبه عنه من بين أسباب حجب الهداية التي ذكرها الله في كتابه

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف:٥٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ ﴾ [الزمر:٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾ [غافر:٢٨].

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨، وآل عمران: ٨٦، والتوبة: ١٩، ١٠٩، والصف: ٧، والجمعة: ٥].

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:١٠٨، والتوبة: ٢٤ و٨٠، والصف: ٥، والمنافقون: ٩].

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٦٤، والمائدة: ٦٧، والتوبة: ٣٧، والنحل: ١٠٧].

كل هذا وغيره من البيان القرآني المتكرر والمفصل للأسباب والعوامل المانعة عن الهداية ثم تجدهم يتساءلون بسذاجة مصطنعة وتكلف متنطع: لماذا لا يهدينا الله بينما كان الأمر معلنًا منذ البداية والتكليف واضح منذ أول لحظة على الأرض

﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣].

من اتبع الهدى الذي يرسله الله فلن يضل ولن يشقى..

واضحة حاسمة قاطعة

في المقابل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

هو الذي نسي

هو الذي أعرض عن الذكر

هو الذي تغافل عن الآيات وتعامى عنها

صحيح أنه لم يكن أعمى البصر لكن بصيرته كانت هي الضريرة باستحبابه العمى على الهدى وبرفضه لمحل الهداية

الوحي..

نعم.. تلك هي النظرة التي ينبغي أن ننظر بها للوحي

إنه محل الهداية وموطنها وسببها المباشر

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢]

وكأنها إجابة مباشرة على دعاء الفاتحة المتكرر

تريدون هداية؟

تبتغون إرشادًا؟

تطلبون دلالة وعونًا على سلوك الصراط؟

دونكم مبتغاكم

هذا القرآن

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

ها هي محكمة صريحة واضحة

هذا القرآن يهدي

يهدي للتي هي أقوم

للحق وللرشد والطريق المستقيم

كذلك وصف الجن ذلك القرآن العجب

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن: ١ - ٢]

وفي الأحقاف أيضًا

﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٠].

هكذا ينبغي أن تنظر للقرآن بين يدي تلاوتك

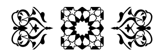
تخيل أن تقبل على قراءة القرآن ومصاحبته ويخيم عليك هذا الشعور والاحتياج

أنت الآن مقبل على محل هدايتك وسبب رشادك وسبيل دلالتك إلى الحق

أنت الآن مقدم على أكثر ما تحتاج إليه في هذه الدنيا

الهداية..

تلك التي إن أدركتها اليوم = رزقتها غدًا إن شاء الله وكنت ممن قالوا هناك: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:٤٣].



٥. أن يكلمك ربك...

كلام ربي... كلام ربي

تلك الكلمات التي كان يرددها سيدنا عكرمة رضي الله عنه بينما يضع المصحف على وجهه ويبكي

لكن لماذا؟

ما الذي كان يدمع عينيه ويبكي قلبه؟!

أتراه الشوق

أم هو التعظيم

أم هي الخشية

لعل كل ذلك من ثمار هذا الإحساس الجارف بين يدي تلاوة القرآن

إحساس بتلك القيمة التي هو مقبل عليها

سيقرأ كلام الله

وسيسمع رسالة مولاه

ذلك هو الفارق الرئيس بين كثير منا وبين أولئك الذين أدركوا أعظم قيمة للقرآن

أنه كلام المولى جَلَّجَلَالُهُ

عندما أدركوا ذلك ابتداءً كان تفاعلهم وتدبرهم وتجاوبهم مختلفًا

- بلى واللّه إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا

دائمًا كانت هذه الجملة التي رويت عن الصديق أبو بكر رضي الله عنه محل تفضيل من الدعاة والمصلحين والمربين حين يعظون الناس في شأن العفو والصفح والتغافر

رجل أنفق عليه الصديق أعوامًا وقيل أنه قد تربى في حجره يتيما ثم يكون المقابل أن يخوض في عرض ابنته وزوجة نبيه مع من خاضوا في الإفك المبين ومع ذلك يتناسى الصديق كل هذا ليعود إلى عطائه والإغداق على مسطح من جديد

ويعفو..

أمر مذهل يقف المرء طويلًا أمامه مشدوهًا متأملًا

كيف فعلها؟!

كيف استطاع تحملها وحمل نفسه عليها وإنها لكبيرة إلا على من وفقه الله لاحتمالها؟!

كيف قابل هذه الإساءة البشعة بإحسان فضلًا عن صفح وغفران؟!

الإجابة عن تلك الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن تكمن في تلك العبارة التي صدرت بها المقال

بل في الحقيقة تكمن في أولى كلمات تلك العبارة

كلمة: بلى...

إنها كلمة تستعمل كجواب لاستفهام دخل على نفي فتفيد إبطال هذا النفي وإثبات المعنى

وهي هنا إجابة السؤال الرباني الذي نزل به الوحي مخاطبا كل من له حق يمكن أن يصفح عنه

ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟!

طبعًا نحب...

ومن لا يحب؟

ربما لا أكون مبالغًا لو قلت بيقين جازم أنني لا أتصور مسلما صحيح الإسلام تام الأهلية يعي معنى هذا السؤال ثم يملك أن يجيب بإجابة غير تلك التي أجاب بها الصديق ﵁

وهل يتصور أحد أن تكون إجابة مسلم عن هذا السؤال: نعم يا رب لا نحب أن تغفر لنا؟!

هل يتخيل مخلوق أن يجرؤ مؤمن بالله واليوم الآخر على رفض المغفرة؟!

أعتقد أن ذلك مستحيل عقلًا وشرعًا

إذن فما السبب الذي يؤدي لهذا البون الشاسع بين رد فعل عموم المسلمين تجاه تلك الآية ومثيلاتها وبين رد فعل الصديق

أعتقد أنه وبغض النظر عن فحوى السؤال وقيمة المغفرة فإن مناط ما فعله الصديق يكمن في أنه تفاعل..

في كونه تعامل مع السؤال القرآني على حقيقته

سؤال من الله موجه إليه

هو مخاطب به

عندئذ أجاب..

وكانت الإجابة متوقعة والمنطقية: بلى وَالله إِنِّي لَأُحِبّ أَنْ يَغْفِر الله لِي!

ثم أعاد إِلَى مِسْطَح نَفَقَته الَّتِي كَانَ يُنْفِق عَلَيْهِ وَقَالَ: وَالله لَا أَنْزِعهَا مِنْهُ أَبَدًا

وهكذا دائما كانت ردود الأفعال عند أولئك الذين أدركوا تلك الحقيقة وعاشوا بتلك القيمة

حقيقة أن الله يتكلم وقيمة أنهم مخاطبون بكلامه

من يدرك ذلك لابد أن يتفاعل وأن يجيب ويستجيب

❁ حين نُودي آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقيل له ولزوجه: ﴿ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف:٢٢] كان التفاعل مباشرا والإجابة سريعة وواضحة محددة: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

❁ ولما نُودي موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وسئل عما في يمينه أجاب وأستفاض في الإجابة: ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴾ [طه:١٨].

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: هي عصاي

لكنها المناجاة والتفاعل مع كلام الملك

۞ وحين يُسأل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن اتخاذ الناس له ولأمه إلهين من دون الله سيجيب قائلًا: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

۞ ولما سمع الصحابي أبو الدحداح رضي الله عنه أن الله يسأل: من ذا الذى يقرضه قرضًا حسنًا أجاب فورًا بإجابة عملية وتصدق ببستانه البهيج صائحًا: البستان قرض لله البستان قرض لله.

۞ ولما سمعت الجن سؤال الرحمن المتكرر في سورته ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أجابت من فورها: لا بشيء من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد».

۞ وبعد أن ذكر الله بشاعة الخمر والميسر ثم قال: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١] صاح المجيبون: انتهينا يا رب انتهينا يا رب وسالت الخمر في شوارع المدينة أنهارًا

❁ وهكذا كان التفاعل مع قول الله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:١٦].

ألم يأن؟

سؤال لا بد له من إجابة

ولا تصح له إلا إجابة واحدة فلا يستطيع عاقل لو فكر قليلا إلا أن يجيب ملك الملوك قائلا بالقول والعمل: بلى قد آن قد آن

فقط يحتاج أن يستشعر أن السؤال موجه إليه وستأتي الإجابة بإذن الله

حين وقعت تلك الكلمات من قلب الفضيل بن عياض موقع التجاوب والشعور بالمخاطبة كانت الإجابة وكان التغيير الشامل في حياته وصاح معلنًا إياها: بلى يا رب قد آن... بلى يا رب قد آن

وما فعله الصحابة حين سمعوا نفس الآية التي تفاعل معها الفضيل لم يكن بعيدا عن رد فعله فقد تفاعلوا هم كذلك مع الآية والسؤال الرباني المحكم واعتبروه معتبة موجهة لهم فقال ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا ربنا إلا أربع سنوات

✍ **وقال ابن عباس:** «استبطأ الله قلوب المؤمنين فعاتبهم»

وروي أنهم كان بعضهم يعزى بعضا بعد استشعارهم لخطورة ذلك السؤال وقيمة تلك المعتبة والاستبطاء

هذه النماذج المتعددة لتفاعلات وتجاوبات مع سؤالات المولى عَزَّوَجَلَّ ونداءاته تعد غيضا من فيض نماذج لا تحصى كانت رد الفعل الطبيعي من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين يُنَادَون أو يوجه إليهم الكلام فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون

وهذا ما فعله ويفعله من يدركون قيمة النداء الرباني ويعون حقيقته ويستشعرون مخاطبتهم به

وذلك هو الفارق الرئيس بيننا وبينهم

الفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسارعته بالإجابة والعفو

والفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي الدحداح الذي تخلى عن ثروته المتمثلة في حديقته الغناء امتثالا لآية من كتاب الله

والفارق الرئيس بيننا وبين الفضيل بين عياض الذي تغيرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب

إنه الفارق الرئيس بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذي عطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم وقد أجابوا واستجابوا

الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن على أنه كلام الله لهم.

أنهم تفاعلوا مع القرآن ونظروا إليه نظرة سديدة دقيقة ظهر أثرها جليًّا في ردود أفعالهم التي ذكرت في السطور السابقة طرفا يسيرا منها والتي تعد من اهم أركان مرحلة ما قبل التلاوة وأثناء التلاوة أيضًا

نظرة مفادها وخلاصة أثرها: أن الله يكلمنا

هذه الآيات كلام الله لنا

ملك الملوك يخاطبنا نحن

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة لنا

لك ولي...

كيف إذًا لا أرد؟

كيف إذًا لا أتفاعل؟

وهل يسعني أن أعرض وألا أجيب ولا أستجيب؟

للأسف الشديد كثيرًا ما نتعامل مع القرآن على أنه فقط كتاب شعائر تعبدية محضة أو أنه وسيلة لتحصيل الحسنات وجمع الثواب في المواسم التعبدية وحسب، بينما ننسى أو نتغافل عن تلك الحقيقة العظمى

حقيقة أنه كلام الله

أنه حبله الممدود طرفه بأيدينا كما وصفه رسوله ﷺ

أن ربنا يتكلم..

لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله ومعاملته بهذه الصفة والإحساس بآثارها وتدبر تجلياتها فكانوا كمن ظل يثبت عظمة وجلال كتاب وينفق الأوقات على إثبات نسبته لصاحبه ثم لم يجد الوقت لفتحه أو قراءته

أو كمن دعي إلى وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها.

ولله المثل الأعلى

إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها على الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها

ورغم أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد تكمن في آية واحدة

في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة لك أنت

تنتشلك معانيها..

تشفيك موعظتها..

وتضيء توجيهاتها طريقك

ورغم أنه كثيرًا ما يكون الحل في التذكير بالقرآن -وحسب- دون وسيط أو إضافة أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما يكون له مواطن أخرى

رغم كل ذلك إلا أن قليلًا من ينتبه وقليلًا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يُخلَّى بينك وبين كلام ربك مباشرة..

يخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك

وقليل من المربين والموجهين من يعنون بتوجيه قلوب وعقول الناس لتلك القيمة والحقيقة ويجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاته وتذكراته ونصائحه وتوجيهاته

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

حاول بين يدي تلاوتك أن تتعامل مع القرآن من هذا المنطلق

حاول أن تتفاعل معه..

أن تجيب عن سؤالاته

وأن تمتثل لأمره

وتنتهي عن نهيه

حاول استشعار أنك أنت المخاطب

أنت

نعم أنت..

القرآن كله يحتشد بالنداءات والسؤالات والأوامر والنواهي الموجهة لك أنت

كل كلمة يا عبادي أو يا أيها الذين آمنوا أو يا أيها الناس تشملك أنت

الله ينادي ويدعو عباده

وأنا وأنت من عباده

يدعوك أنت ويدعوني أنا وهو الغنى عنا ونحن الفقراء إليه

يدعوك ليغفر لك من ذنوبك

يدعوك لدار السلام والجنة والمغفرة بإذنه

يدعوك لما يحييك ويناديك لما فيه خيرك

كم امتلأ كتابه بالنداءات التي لم ترعها سمعك

كم مرة سمعت «يا أيها الذين آمنوا» و«يا أيها الناس» و«يا عبادي»

نعم هذا أنت

أنت المنادَى وهو المنادِي

هل لابد أن ترى اسمك مكان كل كلمة عبادي أو الذين آمنوا أو الناس وسائر تلك الكلمات التي تأتي بعد النداء لكي تشعر أنك أنت المخاطب والمنادى؟

لماذا لا تحاول أن تتجاوز الأسماء والألقاب وتغوص بقلبك في حقيقة المعنى

وتستمتع بشعور جديد

شعور أن ربك يناديك

يكلمك..

يسألك..

ويدعوك ليغفر لك

حاول

وصدقني إن شاء الله ستشعر بفارق كبير

وستلمس بإذن الله تغيرا واضحا في علاقتك بالقرآن

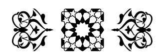
تغيرا للأفضل

فقط إذا ترسخت في نفسك تلك القيمة

قيمة أن ربك يكلمك..

وأن هذا كلامه

كلام ربك..



٦. فهل من مُدَّكِر

بين يدي تلاوتك يفترض أن تحتاج إلى تيسير وعون

تحتاج أن ييسر الله لك ترتيل كلامه وفهم معانيه وأن يعينك على العمل به وتطبيقه بعد ذلك.

هذا مراد ومقصد أي مخلص في تلاوته وهذا ما يهفو إليه قلب كل قارئ للقرآن

والله دلنا على سبيل ذلك التيسير في آية محورية من سورة القمر

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر:١٧]

اسمح لي أن أذكر لك قصتي الشخصية مع هذه الآية فلعلها توضح ما أريده بهذه الخطوة قبل التلاوة

بدأت علاقتي بهذه الآية منذ ما يزيد عن عشرين عاما تحديدًا في منتصف سني دراستي الجامعية وفي نفس التوقيت تقريبا بدأت علاقتي بالمسجد وبالتدين بشكل عام

قبلها للأسف كنت بعيدا جدا عن ذلك الطريق وعن أهم أركانه وهو في اعتقادي = القرآن

بدأت علاقتي بالقرآن بجلسة تلاوة يومية في مسجد صغير يحرص رواده بعد كل صلاة صبح على عقدها وتعلم ما تيسر من أحكام التلاوة ومعاني الآيات في تلك الجلسة

لم يكن بينهم متخصص أو قارئ محنك لكن أغلبهم كانوا يجيدون التلاوة إلى حد لا بأس به وكان أتقنهم يحرص على تصحيح تلاوة الآخرين بحسب مستوياتهم

حين بدأت لأول مرة وأنا من كنت أظن نفسي مثقفا مطلعا كثير القراءة جدًّا وقد كانت تلك هوايتي المفضلة لكنها للأسف كانت قراءة في كل شيء إلا في كتاب الله

قلت لنفسي ساعتها حين شرعت في التلاوة وما الفارق؟

فلأحسن صوتي بعض الشيء والأمر بسيط ولا فارق بينه وبين باقي القراءات التي أجيد نحوها وصرفها بشكل لا بأس به

بدأت في الترتيل وكانت المفاجأة

أو إن شئت فقل المهزلة

لا توجد تقريبًا ضمن تلاوتي حركة صحيحة ولا حرف يقوم بذاته قيامًا سليمًا فضلًا عن مسافات شاسعة بين تلاوتي وبين ما عرفت بعد ذلك أن اسمه تجويد هذا طبعا بخلاف العجمة التي تجعلني لا أكاد أربط بين معنى آية وأخرى سابقة أو لاحقة ولا اكاد أفقه شيئًا مما أتلو أو يُتلى عليَّ

وطبعًا لكثرة الأخطاء في تلاوتي لم يعد من على رأس المقرأة يردني إلا فيما يغير المعنى أو يفسده وكان كثيرًا أيضًا

كنت يومها في غاية الحرج وبين الحضور من يصغرني بكثير ويقرأ بشكل رائع ومنهم من تعليمه متوسط أو ليس متعلمًا أصلًا ورغم ذلك يقرأ أفضل مني بمراحل بل لا يصح أن تقارن تلاوته بتلاوتي أساسًا

لكنهم كانوا في منتهى الرقي

لم يسخر مني أحد منهم بل ولم تتحول ابتساماتهم المشفقة على هلعي وخوفي من إتمام القراءة إلى ابتسامات تشفٍ أو استعلاء

كانوا في منتهى الأدب والحرص على تهدئة روعي وطمأنتي أن ما أنا فيه هو أمر عادي لأني لم أتعلم بعد قواعد التلاوة وأن ذلك سيأتي تدريجيًّا

المهم أن أستمر

وأن أصدق الطلب

لا أنسى ما بشرني به أحدهم حين أخبرني أن لي أجرين وليس أجرًا واحدًا ونبأني بحديث النبي ﷺ في «صحيح مسلم» «**الماهرُ بالقرآن مع السفرةِ الكرامِ البرَرَةِ. والذي يقرأ القرآنَ ويتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجرانِ. وفي روايةٍ: والذي يقرأُ وهو يشتدُّ عليه له أجران**».

لكن ما نشط همتي وأعانني حقًّا على الصبر والمصابرة كان تلك الآية التي قرأها عليّ فاضل منهم وأخبرني أنها تكررت أربع مرات في سورة القمر

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

القرآن ميسر إذًا

الأمر ليس صعبًا كما حاول الشيطان أن يهيئ لي وكاد ينجح في تثبيطي عن الإكمال والاستمرار

القرآن ميسر بنص متكرر في القرآن

بشهادة من أنزل هذا الكلام سبحانه

هو جَلَّجَلَالُهُ يشهد أن كلامه ميسر للذكر

لكن ثمة شرط واحد لكي ينتفع المرء بهذا اليسر الموعود

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾

هل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟

هل من منزجر عما فيه من النواهي ومسارع إلى ما فيه من خيرات؟

هل من طالب ادِّكار وذكرى = فيعان عليه؟

هل من طالب فهم وعلم لمعاني القرآن وتوجيهاته = فيهدى إليها؟

الفكرة في الطالب إذًا وليس المطلوب

وكالعادة الصدق هو المعيار

لهذا إذًا لم أجد ذلك التيسير ابتداءً..

المشكلة لم تكن في التلاوة نفسها ولا في قواعد كنت أذهل حين أخطئ فيها بهذا الكم بينما أنا أعرفها ولا أخطئ فيها عند أي قراءة أخرى

المشكلة كانت فيّ أنا..

لم أكن مدَّكرا

لم أصدق بعد وأنا لازلت بين غمرات الغفلات والأهواء

أتذكر في ذلك اليوم كنت للأسف لم أزل مقيما على بعض المعاصي وقررت أنه لا يليق بطالب قرآن وادِّكار أن يقترفها أو على الأقل أن يصر عليها

بفضل الله قررت في ذلك اليوم الإقلاع عنها بهذه النية

طلب القرآن..

هل صرت معصومًا من الذنب بعدها؟!

قطعًا؛ لا

لكنني حاولت أن تكون بدايتي مع الادِّكار والتدبر = توبة

والله لم يمر شهر بفضل الله إلا وقد تغير الحال وتحقق الوعد

أحد من كان معنا في بداية تعتعتي المحرجة غاب شهرا ثم عاد للمقرأة وجاء دوري

تحولت ابتسامة الشفقة والمواساة إلى ابتسامة سرور وفرح يمتزج بها الاندهاش وهو يستمع إلى تلاوة معقولة لم تعد تقطعها تصحيحات المسؤول عن المقرأة

ماذا فعلت؟

كيف في هذه الفترة القصيرة؟

دهشته المتسائلة لم تدم كثيرا حين أنبأته أن الأمر ليس فيه شيء عجيب ولا ذكاء مختلف

فقط ذكرته بالآية التي صنعت الفارق معي بين يدي تلاوتي

والحق أنني لم أفعل شيئًا

ولا غيري فعل

التيسير ذاتي في القرآن نفسه

والإعانة وعد من المتكلم به سبحانه

كل ما عليك فقط بين يدي تلاوتك أن تدَّكر

أن تكون طالب قرآن راغبًا فيما به من كنوز وخيرًا

وأن تثق تمام الثقة في الوعد الذي قطعه من هذا كلامه

وعد التيسير لكل مُدَّكِر

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

٧. وِردك خط أحمر

أغلب عناصر حياتنا ذات الأهمية والقيمة الواضحة؛ لو تأملنا تعاملنا معها سنجد أننا عادة نجعل لها أورادًا

والأوراد جمع وِرد (بكسر الواو) وهي الأشياء التي نقوم بها بشكل ثابت ولها مواعيد محددة وقدر معلوم

مثلا أغلب من له عمل أو دراسة ستجد أنه يعرف المواعيد الملزمة أو غير الملزمة التي يذهب فيها لعمله أو دراسته ويعرف غالبا وبقدر كبير من الدقة الوقت الذي سيمكثه هنالك

هذا يعتبر وِرد..

يمكنك تسميته بوِرد السعي على الرزق أو وِرد العمل أو الدراسة

أيضًا جل الناس ستجدهم يجعلون مواعيد شبه ثابتة لتناولهم وجبات طعامهم اليومية أو على الأقل ستجد موعدا لوجبة رئيسية وغالبا ستجد الكم شبه ثابت وربما النوعيات التي يتناولها اللهم إلا من تحول ظروف عمله بينه وبين ذلك أو يفضل أن يعيش حياته بلا نظام ولا ترتيب

يمكننا أن نعتبر هذا = وِرد الطعام

على نفس النسق ستجد أورادا للعلاقة بالأبوين أو الزوجة والأبناء إن كان الشخص متزوجا ويعول

ستجد أورادا للمجاملات والمناسبات الاجتماعية وستجد حتى أورادا للترفيه والمتعة يومية وأسبوعية وسنوية

لا يشترط أن يكون الأمر حاسما بمواعيد حاسمة قاطعة لكنك لو تأملت حياة من لا يعتبرون أنفسهم همجيين بوهيميين أو كما يقال بالعامية (مهرجلين) = فستجد تلك الأوراد بأشكال وأقدار تتفاوت وتتباين من شخص إلى آخر

لكنها تظل موجودة

في أغلب الأمور التي لها قيمة كبرى في حياتنا وندرك تلك القيمة كما أسلفت = من الضرورة أن تجد شيئا من هذا الترتيب والمداومة

إلا في الدين للأسف

كثير منا يتعامل مع الدين بالذات بمنطق الـ (سبهللة)

قال بعضهم أن كلمة (سبهللة) التي يرددها المصريون كثيرًا للتعبير عن عدم الاكتراث واللامبالاة هي مزج عامي لكلمتين تكونان معًا جملة أمرية واضحة

سيبها لله

هكذا كان معتنق السبهللة ينزع عن نفسه أي دور أو مسؤولية زعمًا منه أنه ترك تدبير ذلك الأمر لله

حسنًا لماذا لم يفعل ذلك في عمله النظامي أو في حق بدنه من طعام أو راحة أو في مقارفة شهواته حلالًا كانت أو حرامًا

لماذا فكر وقدر وخطط وبذل وتحرك وأنتج في الدنيا ثم حين أتى ذكر الدين صُدِّرت الكلمة فورًا

سيبها لله

خليها على الله

ربنا يسهل

وهكذا يبرئ نفسه من أي تقصير وقد حضر المبرر وظهر

الله لم يأذن بعد

لا شيء عليَّ أنا إذا

فلأتفرغ لمشاغلي الأخرى بسرعة لعلي أستطيع أن أنجز شيئا من أورادي

كل أورادي

وماذا عن الدين؟

ماذا عن قول نبينا ﷺ «**خير الأعمال أدومها وإن قل**».

وماذا عن فعله وفعل آله وقد روي أن ذلك الفعل كان ديمة (أي يداومون عليه) وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملا أثبتوه

وما الوِرد إلا ذلك؟

كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك في جل عباداته أو كلها

صلواته

أذكاره

أدعيته

تعليمه للخلق

وهكذا....

وكذلك تكون الأوراد

وكذلك تكون الجدية والمسؤولية التي لا يدركها من يصرون أن الدين لديهم في ذيل قائمة الأولويات

من يصرون أن العبادة والصلاح أمور هامشية تأتي فقط حين تفرغ برهة صغيرة من الوقت نجت من تزاحم أوراد المشاغل الأخرى

والسؤال لهؤلاء لا أجد له أنسب من اللفظة العامية الشاملة

(اشمعنى)

اشمعنى الدين

لماذا لم نترك أي فرصة دنيوية بينما نزهد في فرص الآخرة؟

لماذا نتعامل مع الدين بمنطق الهواة بينما ننظر إلى الدنيا كساحة تنافس محتدم بين محترفين

بينما كان يفترض العكس

ويالحماقة هؤلاء الذين يصرون على التخلي عن ذلك الحل الرائع الذي قد يعالج تدني همتهم

حل الأوراد

التثبيت

الخطوط الحمراء

لابد للمؤمن أن يجعل لنفسه شيئا من هذا

عبادة معينة

صلاة محددة

صوم تنفل

ورد دعوة ونصيحة

المهم أن يفعل

يعز عليَّ جدًّا أن أقوم بتلك المقارنة بين أوراد الدنيا الجادة وأوراد الدين (السبهللة)

لكنها للأسف مقابلة واقعية لابد من الاعتراف بها لعل الاعتراف يورث حلًّا

ويورث أورادًا

ومن أهم تلك الأوراد والتي تؤدي إلى المقصد الذي نبغيه من صنع علاقة صحبة مع القرآن = وِرد التلاوة

وقد كان لرسول الله ﷺ أوراد لسور معينة يقرأها كل يوم

وسور يقرأها كل ليلة

وسور يقرأها عدة مرات في اليوم والليلة

وسور أسبوعية

وسور سنوية في مناسبات كالعيدين مثلًا

هذا بخلاف تلاوته المطلقة

وكل ذلك في التلاوة فقط مما لا يتسع المقام لذكره كله بتفاصيله

كذلك كان له وِرد مدارسة وفي الحديث كان يأتيه جبريل في رمضان فيدارسه القرآن

من أنجح الوسائل التي تعينك على مصاحبة القرآن أن تعتمد هذا الأسلوب

أسلوب الوِرد

تجعل ساعة محددة للتلاوة

وقدرًا ثابتًا يزيد ولا ينقص

قد يكون القدر مدة معينة وقد يكون كما معينًا حسب طريقتك في التعامل مع كتاب الله

وقد يزداد حرصك فتجعل لوردك مكانًا ثابتًا في منزلك أو في مسجد تخلو فيه بكلام ربك

وربما يتطور الأمر وتتعدد الأوراد فيكون لك بعد حين وِرد تعلم ومدارسة لمعاني القرآن وتفسيره ووِرد تدبر وتأمل في آياته وقد تعلو همتك فتجعل وِردًا لحفظ القرآن وحسن تجويده وترتيله.. وهكذا

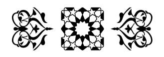
مهما كنت منشغلًا ومهما كانت ظروفك تستطيع استعمال أسلوب الأوراد خصوصًا أنه لا يشترط الضخامة وحديث النبي ﷺ كان واضحًا

«**وإن قلّ**»

المهم أن تداوم

وأن تبذل من وقتك وجهدك لإقامة تلك العلاقة مع كلام ربك

علاقة الصحبة



٨. خُذ فكرة..

الأشياء المهمة يسبقها دوما نوع من التجهيز...

هذه قاعدة مطردة لا يكاد يخالف فيها أحد.

وعلى قدر الشعور بأهمية الشيء الذي يقبل عليه المرء = تجد تجهزه وإعداده بين يديه

الطالب المُجد يعد العدة جيدا قبل امتحانه

المقبل على زواج يتجهز ويستعد ماديًّا ومعنويًّا

هل تتذكر موعدًا مهما أو لقاءً مصيريًّا يتحدد على أساسه مستقبل أمر معين يهمك؟

هل شعرت بينما تنفق من وقتك وجهدك وذهنك للإعداد له أن في ذلك تكلفًا أو شيئًا غير طبيعي؟

أعتقد أن الإجابة ستكون بالنفي

من الطبيعي والمتوقع أن يُعد المرء العدة لما يعتبره أمرًا مهمًّا مؤثرًا

بل إن معيار الصدق في طلب الشيء يتمثل في هذا الإعداد

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦].

هكذا بيَّن ربنا جَلَّجَلَالُهُ القاعدة بوضوح في إطار فضحه لكذب المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك متعذرين بشتى المعاذير فكانت تلك القاعدة المبينة لحقيقة الأمر

لو أرادوا = لأعدوا

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

❁ في «الصحيح» من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ أَعرابيًّا قَالَ لرسول الله ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فكانت إجابة رسولُ الله ﷺ: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»

هكذا يوجه النبي ﷺ بوضوح لتلك القاعدة المعيارية

الإعداد والتجهز للأمور التي يقدر الإنسان قيمتها

من هذا وغيره تتقرر القاعدة التي بدأنا بها: الأشياء المهمة دائما يسبقها نوع من التجهيز... وعلى قدر الشعور بأهمية الشيء الذي يقبل عليه المرء = تجد تجهزه وإعداده بين يديه

ما سبق يعد مقدمة تمهيدية لخطوة أخرى من خطوات رحلتنا في صحبة القرآن وخصوصًا مرحلة ما قبل التلاوة

إنها الخطوة المنطقية الواضحة

التحضير والتجهيز لما أنت مقبل عليه

وابتداءً أن تتقبل نفسيًّا بذل بعض الوقت والجهد للفهم والتدبر والانتفاع بالقرآن

ثم أن تترجم هذا القبول إلى بذل وإعداد حقيقي

هذا الاستعداد من وسائله العملية المهمة؛ تحقيق سنة نبوية للأسف صارت شبه مهجورة حتى بين كثير ممن يتلون القرآن

سنة المدارسة

تلك المدارسة تكاد تكون التميز الرئيسي الذي ورد به النص الصحيح في علاقة النبي ﷺ بالقرآن في موسم قرآني مشهود

في شهر تنزل القرآن.. رمضان

في رمضان كان جود وكرم النبي ﷺ يتضاعف فيصير كجود الريح المرسلة التي لا تميز في عطاء الخير وتسارع لذاك العطاء الجزيل

كل ذلك حين يأتيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيدارسه القرآن

تأمل الربط..

علاقة وثيقة بين القرآن وتدبره ومدارسته وبين العمل والتطبيق

كل ذلك في شهر تكثر فيه تلاوة القرآن وسماعه

وإن من أجمل التجارب التي نفعني الله بها خصوصًا في مواسم الطاعة والإقبال على التلاوة كرمضان = ربط الوِرد اليومي من القرآن بما سيُقرأ ليلا في صلاة التراويح كنوع من الاستعداد لما سأسمع من آيات الله

تصور أن تجعل السورة أو الجزء الذي سيُقرأ عليك في ليلتك هو المتن الذي تحيا به في يومك

تقرأه وتتدبره وربما تقرأ تفسيرًا مختصرًا له أو حتى تسمع محاضرة أو خواطر تناولته أو حتى تمر على معاني الكلمات التي لم تعتد سماعها أو ما يعرف بغريب الألفاظ القرآنية

تصور لو أنك قضيت يومك في معايشة أجواء تنزل السورة وأسباب نزولها وحال النبي ﷺ وأصحابه أثناء تنزلها وأسباب ذلك النزول

ثم ينقضي اليوم وتبدأ الليلة وتتأهب لقيام الليل بهذه السورة التي تلوت وتدبرت وعايشت

أي أثر يكون على قلبك حينئذ!

وهل سيكون رد الفعل القلبي على من فعل ذلك سواء مع من لم يعرف شيئًا عن تلك الآيات التي تُتلى عليه؟!

هل يستوي من علم ومن لم يعلم؟!

إن كثيرا من ردود أفعال الصالحين تجاه آيات القرآن حين يتلونها أو تتلى عليهم = مبناها على فهمهم ومعايشتهم لمعانيها وأجوائها

لما طلب النبي ﷺ من صاحبه سيدنا عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه من كتاب الله مبينًا السبب: «**إني أشتهي أن أسمعَه من غيرِي**» فقرأ عليه من سورة النساء حتى بلغ قول الله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] فأمره النبي ﷺ أن يمسك عن القراءة فنظر إليه سيدنا ابن مسعود ففوجئ أن عيناه تذرفانِ

مثل هذا التأثر لا يخرج إلا كثمرة لفهم ومعايشة

بالطبع نقر أن الآية مخاطب بها رسول الله وتتحدث عن مشهد أخروي يكون فيها شهيدا على الأمم من ثم كان التأثر ناتجا عن هول الموقف الذي سيقفه وعظم المسؤولية

وإن من آيات القرآن ما يخاطبنا بمشاهد نكون نحن أبطالها أو المخاطبين بأحداثها

سمع أمير عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا يتهجد في الليل ويقرأ من سورة الطور فلما بلغ إلى قوله جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ [الطور:٧، ٨] قال عمر: قسم ورب الكعبة حق، ثم رجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.

ما الذي استشعره؟

وأي موقع وقعت الآية في نفسه؟

ولماذا؟

الإجابة في جزء كبير منها = الفهم والإدراك

ثم إسقاط ذلك على النفس بسبب المعايشة المسبقة لمعاني القرآن

سمع جبير بن مطعم قول الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥] قال: سمعتها فكاد قلبي أن يطير

وكان قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء:١٠٠] = كافيًا لأن يدفع رجلًا من المهاجرين وهو مريض بمكة أن يقول لأهله: وجهوني إلى طريق المدينة، فيقولون: أنت مريض، فيقول: إني أخشى أن يقال لي: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء:٩٧].

فوجهوه إلى طريق المدينة فمات بالطريق، فنزل قول الله ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

إنه التفاعل من جديد

ومنبعه واضح

الفهم..

الإدراك..

لقد كانت آيات سورة الحجرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢] = كفيلة أن تُجلس خطيب الأنصار ثابت بن قيس في بيته وهو يبكي ظانًا أنه دخل في الآية؛ لأنه كان صاحب صوت جهوري بطبعه فخشي أن يكون قد حبط عمله؛ لأنه لا يخلو أن يكون قد رفع صوته يومًا بحضرة النبي ﷺ حتى جاءه من يواسيه ويخبره من عند رسول الله ﷺ أنه ليس من أهل هذه الآية

وكان قول الله في سورة الطور ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٧] كافيا لأن يجعل عائشة وأسماء رضي الله عنهما في الصلاة تطيلان جدًا الوقوف عند هذه الآية، وهما تسألان الله جَلَّجَلَالُهُ أن يمن عليهما وأن يقيهما عذاب السموم فكان المار ينتظر ينتظر، ويذهب إلى السوق ويعود ليرى أسماء باقية كما هي واقفة تردد هذه الآية.

لماذا؟!

نفس الإجابة

إنهما تدركان المعنى والمدلول والمراد

وآية أخرى كقول الله من سورة الأعراف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١]= كانت كفيلة بأن تردع شابًا أغوته فتاة كان قد ذهب إليها راغبا في حرام ثم يرجع منتصف الطريق لما يتذكر هذه الآية

إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا

أبصروا

انتبهوا

يتعظ الشاب ويرجع مستجيبًا لكلام ربه

لأنه فهم

وهكذا تتعدد النماذج التي تشترك كلها في تلك الكلمة المفتاحية

الفهم..

وهذا الفهم يكون بعد توفيق الله وتيسيره عبر البذل والتعلم

والتجهز ..

ما المانع بين يدي تلاوتك أن تقرأ تفسيرًا مختصرًا لما ستقرأ

لا يشترط أن يكون الكم ضخمًا أو التفسير مفصل ذا مستوى متقدم ففي ذلك تتفاوت الهمم والقدرات

عن الحد الأدنى أتحدث

عن علاقة مبدئية عامة بسور القرآن

نظرة إجمالية شاملة تلقي في نفس القارئ المتجهز مشاعر محددة تجاه كل سورة

فهذه السورة لها في قلبه وقع مألوف محبب وتلك السورة يجد لها في نفسه حنينًا واشتياقًا أما السورة الثالثة فيخفق قلبه رهبة عند تدبر آياتها وتلك السورة الرابعة التي يسارع لقراءتها حين تدلهم به الخطوب ويبتغي تثبيتا لفؤاده ومواساة لجنانه أما هذه الآية فعلى قصرها إلا أن روحه تسمو وتهفو رجاءً؛ كلما تليت عليه

وهكذا يتنقل الصاحب مع صاحبه

يقف مع آية من آياته أو قصة من قصصه أو مثل من أمثاله الجامعة المانعة

يستطرد حول المعاني ويطوف في ظلال المشاعر ويرفل في نعيم المبادئ التي تبث من خلال مجاورة هذا الصاحب العظيم

يعيش مع أبطال قصصه وتتوطد علاقته بهم فيحزن لحزنهم وتتهلل أساريره لفرحهم ويواجه معهم الظالمين والطغاة ويصدع معهم بكلمات الحق التي قذفوها في صدر الباطل

يبحر مع نوح ويسمو بروحه في ملكوت السماء متدبرا مع إبراهيم يصبر مع أيوب ويسبح مع داوود ويصمد مع الغلام في وجه صاحب الأخدود يتزلزل فؤاده مع المؤمنين في مواجهة

الأحزاب يوم الزلزال الشديد ثم ينشرح صدره وهو يطالع نبأ النصر المجيد والرعب الذي تصدعت به نفوس المشركين

يتنقل من مشهد إلى آخر ومن قصة إلى أخرى ويدور مع المعاني والأمثال حيث دارت

كذلك يجد صاحب القرآن العارف بآياته المحب لكلماته وقعا ومشاعر وآثارا كلما تفاعل مع سوره ومر بأجزائه وأحزابه

ويكأنه يسمع قعقات المعركة وصليل السيوف مختلطا بصهيل الخيل وهو يصحب سورة الأنفال ثم يرتجف قلبه غضبًا لربه وهو يطالع جرائم المنافقين في سورة التوبة

يوجل قلبه تعظيمًا وإجلالًا لربه إذا رتل سورة الأنعام ويذوب فؤاده شوقا لمولاه المنان وهو يتلو سورة الرحمن مجيبًا لسؤالها المتكرر وصائحًا من أعماق قلبه وإن لم يسمع الخلق بلسانه: لا بأي من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد

يزداد حمده وشكره وامتنانه وهو يطالع نعم الله وآلائه في سورة النحل ثم ترتعد نفسه خوفا وطمعا وهو يتلو سورة الرعد

ينبهر بعدل الشريعة وإحكام إنصافها وهو يقرأ سورة النساء ثم يعاهد الله على الوفاء بعقود سورة المائدة ومواثيقها وتعلو همته ويزداد يقينه وهو يتأمل تلك المفاصلة الخالدة بين أئمة الحق وسدنة الباطل في سورة إبراهيم ويعجب لذلك اللطف الجميل في سورة يوسف ويزداد انبهارا بفتوحات الله تفرج الكروب عن موسى في سورة القصص ثم يلين قلبه حين يغمره ضياء سورة النور ويذرف الدمعات الخاشعات وهو يتأمل شكوى حبيبه في سورة الفرقان ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان:٣٠].

تحقيق تلك له عدة سبل منها القراءة خصوصًا في التفاسير التي تُعنى بالمقدمات الموضوعية لسور القرآن أو الكتب التي أفردت خصيصا لذلك

و إن لم تكن من هواة القراءة يمكنك أن تستمع إلى شيء يسير من محاضرات تفصل بعض معاني ما أنت مقبل على تلاوته

المهم... أن تكون هناك درجة تجهز

تحيا مع السورة

ترتحل مع معانيها

تتفهم أجواءها

تنظر نظرة مجملة لمقاصدها وأهم مواضيعها

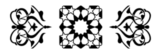
أو كما عنونت لهذا الفصل = **خُذ فكرة**

ولو كانت فكرة مبدئية ونظرة عامة

بعدها تتلو أو تستمع

وتستمتع..

هذه الطريقة أعتقد أن سيكون لها أكبر الأثر في تصحيح علاقتك بالقرآن الإعداد والتجهز لتلاوته لذا ختمت بها مرحلة ما قبل التلاوة ولنبدأ في الفصول القادمة في المرحلة الثانية لإقامة الصحبة





المرحلة الثانية

مرحلة أثناء التلاوة

١. خلوة بحق

ها قد حان موعد وِردي اليومي من القرآن ولتبدأ مرحلة أثناء التلاوة

فلأستجمع قلبي كما نصحني الناصحون ولأستحضر أجواء التنزل ولنبدأ التلاوة على بركة الله

حسنًا... أي سورة كنت سأتلو اليوم؟

أعتقد أنها آل عمران

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ﴾ [آل عمران:١، ٢]

لحظة...

انتظر

ما هذا الإشعار الأزرق الذي يظهر أعلى الشاشة؟

نعم... نسيت أن أخبرك أنني أقرأ وِردي من تطبيق جميل عبر الهاتف

ذكرني أن أخبرك به لعلي أنال المثوبة

لكن دعنا الآن نذهب لهذا الإشعار الأزرق

يبدو أن الفيس بوك قد انقلب رأسًا على عقب بعد هذا المقطع المفاجئ للفنان المشهور فلان الفلاني

حقًّا لقد تجاوز كل الحدود هذه المرة

هذا جنون بكل ما تحمله الكلمة من معاني

فلأشارك بمنشور عبر حسابي أبين فيه وجهة نظري في تلك المهزلة المتكررة

لابد أن يضعوا حدودا لهذا العبث

حسنًا...

شاهدت؟

وكتبت؟

الحمد لله

نكمل تلاوة إذًا

أين كنا؟

في مطلع آل عمران أم منتصفها؟

أظن منتصفها

بسم الله الرحمن الرحيم..

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ فَقَدْ..﴾ [آل عمران:١٠١].

(كيفك يا غالي؟ أين أنت؟ أوحشتنا كثيرا)

تظهر الجملة المبهجة فوق صفحة المصحف من جديد لكن هذه المرة بخلفية خضراء

يبدو أنه الواتسآب

حبيبي وصاحبي الذي لم أره منذ زمن بعيد

ها هو لم ينسني ويراسلني عبر الواتس

والله فيه الخير...

لابد أن أرد عليه

أهلا أهلا صديقي العزيز

والله زمان

أنا بخير يا حبيب

انتظر سأهاتفك أفضل أشتاق لسماع صوتك

لا مشكلة.. مجرد مكالمة ودودة ربع ساعة لن تضر سأطمئن على أحواله ثم أكمل تلاوة إن شاء الله

ما أجمل الصداقة والأخوة

فلأكتب منشورًا بسرعة عن الصحبة والصداقة وعشرة العمر

حسنًا... هاتفته

اطمأننت عليه

كتبت منشورًا عميقًا

نكمل إذًا..

أين كنا؟

آخر آل عمران أم أول النساء؟

لا لا.. ليست النساء بعد

أعتقد آخر آل عمران

فلنعد ربع حزب احتياطا وكلٌ بثوابه

هذه المرة فلأركز بعض الشيء ولا أدع أمرا يلهيني عن التدبر والتلذذ بكلام الله

ولأبدأ بآيات التدبر التي قال عنها النبي ﷺ ويل لمن سمعها ولم يتفكر فيها

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ظُهُورِهِمْ .. ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

لكن ما هذا الإشعار

إنه أحمر هذه المرة

يبدو أن الأمر مهم فلم أعتد تلقي إشعارات من يوتيوب

يا له من مقطع جميل عن فضل التلاوة والتدبر يلقيه شيخي المفضل الذي جعلت قناته ترسل لي تنبيهات إذا حملوا مقطعا جديدا

لا بأس هذا فيديو ديني متعلق بالتلاوة فليس ثمة تعطيل أو إلهاء

يا لها من روحانيات جميلة

فعلًا والله ما أجمل تلاوة القرآن

لكن ما هذا الفيديو اللطيف بالأسفل في الترشيحات

إنه طفل ظريف حقا يصنعون له مقاطع مضحكة على موقع التيك توك

لا بأس من بعض الضحك للترويح عن القلب وهذا طفل فلا توجد معصية إذًا أليس كذلك؟!

لا تقلق لن أكمل باقي الترشيحات ففيها منكرات كما هو واضح

أين كنا؟

كنا في آيات المواريث على ما أتذكر

أم أننا بدأنا سورة المائدة؟

لا لا إنها خواتيم آل عمران

سأكمل تلاوتها لكن بعد الرد على الجروب الخاص بالعائلة

هذه صلة رحم..

أم تريد أن يقال عني قاطع رحم؟!

لا شك أنها خالتي ترسل دائمًا تذكيرات جميلة وصور لا تغادرها حتى تقول سبحان الله

حسنًا للمرة العاشرة... هل سنكمل اليوم سورة الأعراف أم ماذا؟

الأعراف؟!

ألم نكن في الأنعام تقريبًا؟

لا يهم

المهم أن أتلو وأتدبر من أي موضع

لا لا إشعار أزرق مرة أخرى

لن أفتحه

لن أفتحه

لكنه تعليق

لابد أن هناك من علق عندي على أحد المنشورات وهذا أمر جلل لا يحتمل انتظارًا

ما هذا التعليق المستفز؟

كيف يجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟

يا لسخافته كيف ينتقد منشوري عن الكورونا إنه حقًّا منشور عميق رائع

لابد من الرد عليه وقصف جبهته فورا وليعرف كلٌّ مقامه وحدوده

الحمد لله قد ارتحت الآن بعد أن حاججته وبينت للجميع مدى سطحية منطقه

سيتعلم الأدب ويفكر ألف مرة قبل ما يكلمني بهذه اللهجة

لا.. هذا لا يكفي

سأحظره أصلًا فلا داعي لوجود من يفكر بهذه الطريقة ويعلق أيضًا

ليس عندي الوقت لمثل هذا الإلهاء فأنا شخص منشغل بتلاوة القرآن كما ترى

فلنكمل إذا لكن بعد الرد على باقي التعليقات الجميلة التي تنضح بالثناء على منشوراتي الممتازة

ماذا.. هناك من يؤكد وجود موجة أخرى من الوباء

فلأقم بجولة سريعة لأطمئن على الأعداد في مصر

الحمد لله مصر محفوظة ما توقعت في منشوري

لكن ماذا عن هذه الأعداد في انجلترا

ترى هل ستؤثر على الدوري الإنجليزي الذي اتابعه بشغف

بالمناسبة ماذا كانت نتيجة مباراة الأمس لفريقي المفضل؟

لم تتيسر لي الفرصة لمشاهدة المباراة فأنا مشغول كما ترى

فلأشاهد الأهداف بسرعة

يالها من مباراة رائعة فاتتني

لن تفوتني المباراة القادمة لكن الآن لنعد للتلاوة

حقًّا سورة الأنفال هذه رائعة وآياتها تشرح الصدر

أرد فقط على هذا التعليق المجامل على صورتي الشخصية في موقع التواصل ثم أغلق هذه الإشعارات المزعجة

بالمناسبة أهي صورة جيدة أم حان الوقت لتغييرها

فلأضع صورة مصحف لعل الناس تتذكر فضل التلاوة والتدبر

نعم نعم سننال مثوبة عظيمة على هذا

نعم... هكذا... ها هي صورة طيبة للمصحف تذكر من يراها بتلاوة القرآن كما أفعل الآن

هيا هيا فلنغلق الإشعارات ولنركز من جديد

أو لنغلق البيانات والوايفاي ولينقطع الاتصال بالإنترنت كلية ونتفرغ للتلاوة والتدبر

هذا أفضل بلا شك وأدعى للتركيز

ما أشد مهابة سورة التوبة الفاضحة للمنافقين

كنا في سورة التوبة أليس كذلك؟

فلنبدأ مباشرة بلا بسملة فسورة التوبة كما تعلم لا تبدأ بالبسملة

......

..

ماذا الآن؟

أين ذهب تطبيق المصحف؟

«**اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا**»

يتعالى صوت القارئ المفضل لي بهذا الدعاء الجميل معلما إياي أن ثمة مكالمة

إنه صديقي العزيز الذي يشجعني على التلاوة ونتواصى يوميا بالوِرد القرآني

يقينا يريد أن يطمئن على سير ختمتي

فلأرد لأطمئنه

ما أجمل الأخوة الإيمانية والتواصي بالخير

جزاه الله خيرًا كثيرًا

نكمل ما بدأناه

جيد أنني قد أغلقت الإشعارات فليس أفضل من التركيز في التلاوة

لكن ماذا أفعل في المكالمات

ها هي مكالمة أخرى تقطع تدبري الجميل

من هذه المرة؟

يا إلهي... إنه العمل

يبدو أنني قد تأخرت عليهم

حسنا.. فلأكتفي بما تيسر من تلاوة اليوم حتى لا أتأخر فالعمل عبادة كما لا يخفى عليك

وإنما هي ساعة وساعة..

وها قد مضت ساعة التلاوة

لحظة هل آخذ معي مصحف الجيب صغير الحجم لعلي أتلو أثناء الاستراحة؟

لا داعي..

في مصحف الهاتف الذكي الكفاية كما ترى

التقنية والتقدم شيء جيد ومريح ولابد من مواكبة العصر

كل التطبيقات الدينية التي أحتاج إليها موجودة على هاتفي

ليس فقط المصحف

الأذكار والأدعية أيضًا لها نصيب

والمهم التركيز والتدبر كما لابد أنك لاحظت

التركيز أثناء التلاوة....

تعقيب.....

ما سبق لا أقصد به الانتقاص من أي مسلم يتلو القرآن عبر تطبيق من تطبيقات الهاتف والحق أنني أفعل ذلك أحيانًا

لكنني ببساطة حاولت أن أعبر عن بعض ما يحدث معي أثناء التلاوة عبر هذه التطبيقات

نعم.. أتحدث عن نفسي ابتداءً وما أبرئها فهي أمارة بالسوء

ومن السوء خداع تلك النفس وإيهامها أنها تطيع وتتقرب بينما هي لا تفعل

من أهم الأمور في المرحلة التي نتحدث عنها من صحبة القرآن - مرحلة أثناء التلاوة = التركيز

أن تهيئ الوقت والمكان والبيئة التي تعينك على الانقطاع لوهلة عن العلائق والخلوة مع كلام الله وحده

لوهلة وإن قلَّت

وللأسف كثيرا ما يمنع الهاتف من ذلك الانقطاع

لو كان الأمر لا مناص عنه ولابد من القراءة عبر الهاتف فليتحول إلى قطعة مصمتة من خلال ما يعرف مثلا بوضع الطيران أو إغلاق البيانات والخط نفسه إن أمكن

صدقني لن تخرب الدنيا إن انقطعت عنها سويعة

لن تحدث كارثة ولن تعجل نهاية العالم لو وجدوا هاتفك مغلقا لبرهة

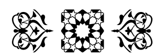
لن تسقط البورصة أو ينهار الاقتصاد إن لم ترد على رسائل الواتساب أو الماسنجر فورًا

وإن مصحف الجيب الذي هجرناه ليس ثقيلًا إلى هدا الحد

إن كان هو الحل لقطع العلائق التواصلية الرهيبة فما المانع أن نعود إليه؟

ما المانع أن نتفرغ أثناء تلك المرحلة

أثناء التلاوة...



٢. على مُكث

منذ سنوات وفي ليلة ما من ليالي رمضان كنا عاكفين أثناءها في أحد المساجد؛ جاءني شاب بعد انقضاء صلاة التراويح يسألني سؤالًا لا أنساه

هل يجوز لي أن أصلي باقي الليلة وحدي وأقرأ بدون مراعاة لأحكام التجويد؟

الحق أنني تعجبت من سؤاله خصوصًا أنني أعرف إجادته للتلاوة وعلو همته فأجبته بسؤال عن السبب وكانت الإجابة المتوقعة

أريد أن أقرأ أكبر كمٍّ ممكن وأحكام التجويد تعطلني كثيرًا!

هكذا أجاب بصراحة يُحمد عليها لكن لا أراه يُحمد على فحواها

لن أشغلك في هذه السطور بإجابتي أو مذهبي بوجوب تلاوة القرآن بالتجويد عند الاستطاعة فذلك ليس موضوعنا في هذه المقالات

ما أنشغل به حقا هو مناط سؤاله

الكمّ

طبعا أنا مقدر لذلك المطلب العظيم الذي يقصده أصحاب ذلك المسلك وهو نيل أكبر قدر ممكن من الثواب والاتجار مع الله وابتغاء الأجر والمضاعفة فذلك مقصد معتبر وليس أجنبيًّا عن كليات الشريعة

الإشكال الذي عندي هو سيطرة ذلك المقصد وتقديمه عن غيره

خصوصًا مع القرآن

آيات القرآن لا ينبغي أن تُعامل على إنها أوراد كمية بحتة

قضية الثواب مهمة بلا شك لكنها تظل بالنسبة للقرآن هدية لاحقة بالمقصد الأصلي من تدبر ومدارسة وعمل وتطبيق وتخلق لكن للأسف كثير منا شغل بالهدية عن الوصية

الهدية هنا ببساطة هي الأجر والمثوبة

لقد صار طلب أحدهم لذلك هو الأصل، ونسي أو تناسى أن تلاوة القرآن ليست فقط وسيلة لتحصيل الحسنات، بل هو

منهج تغييري يؤثر على واقعك وحياتك بعد أن تفهمه وتعي معانيه.

وإن بداية هذا التغيير تكون بتصحيح النظرة للقرآن، ومن ثم تصحيح العلاقة وتحويلها إلى مصاحبة حقيقية ومعرفة تتعمق تدريجيًّا.

ما أراه هو ضرورة تغيير تلك النظرة النمطية للقرآن، وعدم الانشغال بالهدية عن الوصية، والانتباه إلى طبيعة العلاقة التي تجمع بين المسلم وبين آيات ربه.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

تلك هي الصورة التي أراد الله أن تكون عليها قراءتنا

على مَهَلٍ وبُطْءٍ

على ترَسُّلٍ في التلاوة وتؤدة وحسن ترتيل

تلك هي معاني الهيئة القرآنية المذكورة

﴿ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾.

والمكث هو التلبث في المكان والإقامة فيه انتظارًا لأمر من الأمور

✍ **قال ابن عاشور** في «التحرير»: «والحِكْمَةُ في ذَلِكَ أنْ تَكُونَ ألْفاظُهُ ومَعانِيهِ أثْبَتَ في نُفُوسِ السّامِعِينَ».

من هنا يتبين الأصل الذي بنى عليه سيدنا عبد الله بن مسعود نصيحته المتعلقة بالتلاوة والتي تحدثنا عنها في فصل سابق

«لاَ تَنْثِرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ وَلاَ تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلاَ يَكُن هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»

تلك كانت وصية أحد أكثر الصحابة ارتباطا بالقرآن

✍ **ومثل ذلك قول الإمام الحسن البصري**: كيف يرق قلبك وهمك آخر السورة؟!

وجاء رجل إلى سيدنا عبد الله بن عباس فقال له: إني لأقرأ خمسة أجزاء في الليلة

لأن أقرأ البقرة في ليلتي أحب إليَّ مما تفعل

معنى في منتهى البساطة والوضوح لكن للأسف يتغافل البعض عنه رغم أنهم في حياتهم الدنيوية لا يتغافلون عنه

تأمل لو جاءت أحدهم رسالة من حبيب قد اشتاقوا إليه وإلى كلامه هل تجدهم يسارعون إلى سطورها الأخيرة أم أن أعينهم وقلوبهم تتعلق بكل كلمة كتبها

بل ولربما أعادوا قراءة الرسالة مرارا لعلهم يروون ذلك الشوق الذي في نفوسهم لمرسلها

ولله المثل الأعلى

إن هذا المعنى البسيط المباشر يتضح في هدي النبي ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان

النبي الذي قام ليلة كاملة يردد ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٨] ظل يكررها باكيا حتى أصبح عليه الصبح وتنزل إليه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يطمئنه على أمته

النبي الذي أُمر بقيام أكثر من نصف الليل في سورة كانت من أوائل ما نزل من القرآن

سورة المزمل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ ﴾ [المزمل:١-٤]. ها هنا سؤال

بما سيقوم؟

كم سورة نزلت من القرآن في ذلك التوقيت؟

بل كم آية؟

الإجابة معروفة طبعًا

قدر يسير جدًّا

رغم ذلك امتثل النبي ﷺ وامتثل من معه

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل:٢٠]

من هنا يُتبين أن ثمة طريقة واضحة كان يقرأن بها

المُكث

التمهل

والتكرار

لقد كانت للنبي ﷺ معدلات تكرار لكثير من السور والآيات بعضها سنوي وبعضها أسبوعي وبعضها يومي

۞ لكن أعجب هذه المعدلات ما ورد عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: (قام النبي ﷺ بِآيَةٍ من الْقرْآنِ لَيْلَةً) رواه الترمذي وصححه الألباني.

۞ وعن أبي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه: أَنَّ رَسولَ الله ﷺ رَدَّدَ آيَةً حتى أَصْبَحَ) رواه أحمد

تصور أن يظل ليلته يكرر آية واحدة

أي مشاعر كانت في قلبه حينئذ دفعته لذلك الوقوف عندها

ولقد ورد ذلك عن كثير من الصحابة والتابعين

۞ من ذلك ما جاء عَنْ عبَّاد بن حمزة، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ وَهِيَ تُصَلِّي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٧] فَاسْتَعَاذَتْ، فَقُمْتُ وَهِيَ تَسْتَعِيذُ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيَّ أَتَيْتُ السُّوقَ ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِي بُكَائِهَا تَسْتَعِيذُ» وفي رواية: «فذهبت إلى السوق ثم رجعت وهي تكررها»

❁ وجاء عن الإمام أبي حنيفة أنه صلى سنة العشاء الراتبة بالطور فلما بلغ هذه الآية ظل يرددها إلى الفجر.

❁ وقال معمر: صلى إلى جنبي سليمان التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد العشاء الآخرة فسمعته يقرأ في صلاته: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك:١] حتى أتى على هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك:٢٧] فجعل يرددها حتى خف أهل المسجد وانصرفوا، ثم خرجت إلى بيتي، فما رجعت إلى المسجد إلا لأؤذن الفجر، فإذا سليمان التميمي في مكانه كما تركته البارحة واقفًا يردد هذه الآية لم يجاوزها ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك:٢٧]

❁ وهذا الصحابي تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يصلي بالناس في زمن عمر، فكان يقرأ القرآن في ركعة إذا صلى لنفسه، ولربما بقي يردد آية واحدة حتى يصبح

وظل ليلة يردد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية:٢١]، رددها ليلة كاملة.

❁ وجاء عن الربيع بن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنه قرأها فظل يرددها إلى الفجر لم يتجاوزها.

❁ كما ردد الإمام الحسن البصري ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨] إلى الصبح، فلما سألوه لم رددها، قال: إن فيها معتبرًا، ما إن ترفع طرفًا، ولا ترده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلم من نعم الله أكثر.

❁ أما التابعي مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد بات يُرَدِّدُ في ليلة كاملة حتى أصبح: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية:٢١].

❁ وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ربما أقوم خمس ليال متوالية بآية واحدة، أرددها وأطالب نفسي بالعمل بما فيها؛ ولولا أن الله تعالى يمن علي بالغفلة لما تعديت تلك الآية طول عمري، لأن لي في كل تدبر علمًا جديدًا، والقرآن لا تنقضي عجائبه!!».

❁ أما سعيد بن جبير فقد ظل يردد في ليلة كاملة قوله تعالى ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس:٥٩-٦٠].

۞ ومحمد بن المنكدر أيضًا كان له نصيبه من التكرار فقد ظل يردد في ليلة كاملة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧].

ترى ما المعاني التي كانت تتبادر إلى نفوسهم أثناء التلاوة لتجعلهم يقفون بهذا القدر ولا يستطيعون تجاوز الآيات بهذه الطريقة

تلك الأمثلة لا أعني بها أن على كل منا أن يقوم ليلة بآية فهذا ليس الأصل لكن الشاهد منها هو ذلك الوقوف عند الآيات التي تؤثر في النفس

والمُكث

كل منا قد يمر بآية أثناء تلاوته لها وقع مختلف على نفسه

آية قد تؤثر في قلبه وتدمع لها عينه وتختلج بها روحه

لماذا نسارع في تجاوزها؟

لماذا لا نقف عندها ونحرك بها القلب ونغسل بمعانيها الفؤاد؟

إن الثوب الأبيض الذي أصابه شيء من الدنس لا تطهره قطرات ماء عابرة

غالبًا عند تنقية مثل هذا الثوب يتم غسله مرارا ويكرر إمرار الماء عليه لتطهيره

وكذلك القلوب

تلك التي قد دنسها الران وغلفتها الذنوب ألا تحتاج لمزيد تأثير بآيات الله لتطهر وتنقى؟!

ألا تستحق وقوفًا وتمهلًا عند الآيات التي أثرت فيها وشققت جدر الران الذي يكسوها؟!

تلك هي ببساطة القراءة على مُكث

تخيل شخصا مُبتلىً بإطلاق البصر يمر بقوله تعالى ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ ﴾ [غافر:١٩]

أو قوله جَلَّجَلَالُهُ ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾ [النور:٣٠]

هل يمر بسرعة على مثل هذه الآيات أم أن عليه أن يقف معها لوهلة ويكررها ويتأمل معانيها؟

تخيل مُبتلىً بذنوب الخلوات مر بقول الله ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ ﴾ [النور:٢٤]

هل يعبرها دون تدبر وتفكر؟

تخيل مُبتلىً بالكذب أو الغيبة والنميمة يقف عند قول الله ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨] أو قوله ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات:١٢]

أما عن أهل المصائب والبلايا فحدث ولا حرج حين يمر أحدهم بآيات نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أو يتدبر آيات نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

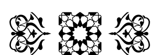
وهكذا

في كل موقف أو حال ستجد من الآيات ما تحتاج إلى الوقوف معه وتأمله وتدبر

وحينها لن يكون همُّك الأول هو الكمّ ولن يكون كل انشغالك بلوغ منتهى السورة أو عدد الأجزاء التي ستقرأها

سيكون همُّك الأول أن تصحبه وأن تلزمه وأن تتلوه كما أراد الله وأحب

تتلوه على مُكث



٣. نَقِّب عن كنزك..

نبدأ بإذن الله المرحلة الثانية من رحلتنا مع مصاحبة القرآن وبعد أن تحدثنا عن مرحلة الإعداد وما قبل التلاوة نتحدث في هذه المرحلة عن الفعل نفسه وآدابه وأهم ما يعيننا على الانتفاع به

إنها مرحلة التلاوة نفسها

كيف نصنع أثناء التلاوة لنحصل أعظم الفوائد ونحقق المقصد الذي إليه نسعى

صحبة القرآن..

ابدأ هذه المرحلة بجملة كان يكررها دوما أحد أفضل أساتذتنا الذين تعلمنا منهم أثناء دراستنا الجامعية

(دوَّر على الكلام اللي بينوَّر)

كان أستاذنا يقصد بتلك الكلمات أنه في طيات كل فقرة أو معلومة أو سطر من سطور المادة العلمية = ثمة كلمات مفتاحية تستطيع من خلال ملاحظتها وتمييزها ثم تثبيتها في ذهنك

والعودة إليها كل مرة = أن تستدعي باقي المعلومة أو الفقرة المراد استذكارها أو استيعاب محتواها

هذا الأسلوب يعد من أشهر وأنجع أساليب المذاكرة والذي يستعمله كثير من الطلبة ويقوم به الماهرون من الأساتذة لتسهيل توصيل المعلومة وتثبيت المحتوى العلمي

كان أستاذنا هذا يحرص أثناء إلقاء محاضرته أن يضيء تلك الكلمات بالذات لتظهر بوضوح على شاشة العرض التي تحتوي الموضوع محل الشرح

في الكتب العلمية أيضًا تجد مثل هذا بأن تكون هذه الكلمات المفتاحية مكتوبة بخط مختلف أو بلون مغاير أو ربما بدرجة أثقل من سائر الكلام

وقد يلجأ الطالب أثناء مذاكرته لوضع خطوط تحت تلك الكلمات المفتاحية أو إحاطتها بدوائر أو مستطيلات وربما تظليلها بقلم فسفوري ليستطيع ببساطة العودة إليها مباشرة كلما أراد إنعاش معلوماته وتذكر ما كان قد طالعه من محتوى يريد إيقاظه عبر استرجاع فكرته المحورية التي تلخصها تلك الكلمات

إن ذلك المحاضر أو المعلم الذي يساعد الطلبة على إدراك تلك المفاتيح والكلمات الدلالية ومن ثم يعينهم على الاستيعاب وحسن التلقي = هو بلا شك يصير أثيرًا لديهم ليس فقط لأنه استطاع تبسيط المحتوى وتلخيصه ولكن أيضًا لأنه أعانهم على إدراك الأهم فالمهم ودلهم على المراد بشكل واضح ومحدد

في تعاملنا مع القرآن ثمة أسلوب مشابه مع فارق محوري يتلخص في كون القرآن كله نور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء:١٧٤].

هكذا سمى جَلَّجَلَالُهُ الله كتابه ووصفه

نور..

لكن من حيث الأصول فللقرآن أيضًا كلياته المحورية ومقاصده الكبرى والتي تدور حولها آياته وسوره وترسخ لها معانيه وقيمه

في أثناء التلاوة ثمة طريقة تعينك على إقامة صحبة مع القرآن وهي ببساطة = التماس تلك الجمل الوضيئة والقواعد الكبرى التي تغير تصوراتك وأفكارك وسلوكياتك

طريقة أحب تسميتها بطريقة التنقيب

دومًا يكون التنقيب في الدنيا عن الأشياء التي تحمل قيمة ثمينة أو لها ثمن باهظ

ينقبون عن الكنوز والآثار

عن الذهب والماس والأحجار الكريمة

عن البترول والغاز

أي شيء له قيمة ثمينة يجد الناس في البحث عنه

لماذا لا تقرأ القرآن من هذا المنطلق

منطلق البحث عن المعاني العظمى والقيم الكبرى

لسيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مقولة تبين هذه الطريقة التي أتحدث عنها

متحدثًا عن القرآن قال صاحب رسول الله ﷺ: «لاَ تَنْثِرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ وَلاَ تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلاَ يَكُونُ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»

هي مقابلة بسيطة بين طرق مختلفة لتعامل الناس مع الأشياء

نثر الدقل في مقابل الاعتناء والوقوف عند الأمور العظيمة

الدقل هو أردأ أنواع التمر ومناط المثال هنا هي طريقة التعامل معه

كيف يتعامل الناس مع رديء التمر؟!

هل يزينون به الموائد أو يعنون بصفه في علب أنيقة أو يقدم في أطباق فاخرة؟

الحق أنه يلقي بإهمال أو يجمع في أجولة بغير اهتمام ولا ينشغل الناس إلا بكمِّه أو وزنه وغالبا يكال ويباع بموازين كبيرة لانخفاض قيمته

البعض للأسف يعامل القرآن هكذا

كل هدفه من التلاوة تحقيق أكبر قدر ممكن في أقصر مدة

كمٌّ بلا كيف

نثر بإهمال ودون تقدير

وما هكذا ينبغي أن يُعامل القرآن

ولا يعامل القرآن كما يعامل الشعر

الشعر يهتم أهله بسجعه وجناسه وصور البلاغة والفصاحة

يهتمون كذلك بأسلوب الإلقاء المسرحي والتأثيري والصوت الجهوري وإذا اختاروا التغني به يكون همهم التطريب والنغم

وللأسف أيضًا البعض لا يريد من القرآن إلا هذا الطرب وهز الرؤوس ومصمصة الشفاة والاستمتاع بالمقامات الموسيقية والأصوات الجميلة

لا أقول أن هذا التغني بالقرآن مذموم بل تحسين الصوت بالقرآن وتحبيره مسنون محمود

المذموم أن يكون هذا هو حظ المرء من رسالة ربه

طرب ونغم واستمتاع

تلك ينبغي أن تظل مجرد أشياء ثانوية أو عوامل مساعدة

أما المقصد الحق فهو التنقيب عن المعاني ثم الوقوف عندها كمن لقي غنيمته الثمينة التي يبحث عنها بشغف

قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ

هكذا وصف سيدنا عبد الله بن مسعود حال القارئ المنقب

ما إن يجد بغيته حتى يقتنصها ويستعملها فيما أنزلت لأجله

إصلاح قلبه

وإذا صلح القلب = صلح باقي الجسد

انظر إلى تلاوتك القرآن على أنك تبحث عن كَنز طوق نجاة وأنت على شفا حفرة من الهلاك تبتغي منها مخرجًا

*** في القرآن بغيتك وكل ما يصلحك**

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨].

*** فيه الثبات**

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢].

*** فيه الموعظة**

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس:٥٧].

❋ **فيه الشفاء**

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

❋ **فيه الإنذار والدعوة:**

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

❋ **فيه الطمأنينة والراحة**

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

❋ **فيه المبادئ والقيم والأخلاق والسلوكيات**

ابحث عن ذلك

اقتنصه

انتفع به

❁ يقول النبي ﷺ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يومٍ إلى بُطْحَانَ، أَوْ إلى العَقِيقِ، فَيَأْتِيَ منه بنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ في غيرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»

قالوا: يا رَسولَ اللهِ، نُحِبُّ ذلكَ

قالَ: «**أَفلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إلى المَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِن كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، خَيْرٌ له مِن نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ له مِن ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ له مِن أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ**».

في هذا الحديث يقرب النبي ﷺ إلى الأذهان ذلك المعنى الذي نتحدث عنه

قيمة القرآن..

كنز المؤمن الذي يبحث عنه

يشبه النبي تعلمك آية أو آيتين بتكسبك لثروة يعرفها العرب جيدا ويدركون قيمتها

الإبل

وليست أي إبل

إنها أفضل الأنواع ومن أشهر الأماكن التي تباع فيها

كأننا بلغة اليوم نتحدث عن سيارات فارهة من أرقى الماركات

أن تتعلم آيتين خير لك من سيارتين من أحدث طراز

وثلاث خير من ثلاث سيارات وهكذا...

ثروة حقيقية لكن أهل المادة لا يدركونها

وبالتالي لا ينقبون عنها

أما من يعي ويدرك قيمة ما يتلوه الآن فسيبحث وينقب

وإذا وجد سيقف ويقتنص

«ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»

هكذا ختم ابن مسعود وصيته

هو ببساطة يبين لك أن الأولوية ليست الكمّ

التعامل مع الكنوز الثمينة لا يكون أبدا بالكم

القيمة والقدر هو المقدم

وهذا يتحدد بما أدركت من نفع وبما وجدت من روائع وعجائب

حين تضاء أمام ناظريك تلك اللافتات الإرشادية أثناء مرورك عليها في تلاوتك

وحين تقف معها وتعرض حالك عليها وتغير في نفسك أشياء وأشياء

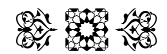
وذلك حدث حين بحثت ونقبت

حين تلوت القرآن بنفسية الباحث عن الكنوز المنقب عن الثروات

وكم في القرآن من كنوز وثروات

فهل من منقب

وهل من مُدَّكر



٤. رأي العين

في طرقات المدينة كان يمشي مطرقًا والدمع يسيل من عينيه

شعور خانق يجثم على أنفاسه ويجري العبرات من قلبه لتنهمر عبر مآقيه

شعور بالنفاق!

هو لم يكن أبدًا ممن يدعون الإسلام بينما يبطنون الكفر

لقد آمن حقًّا وصدقًا

لكنه يشعر بتفاوت حاله

يشعر بأنه مختلف عما يكون عليه عنده

عند أحب الخلق إليه

وهذا الاختلاف يؤرقه ويجعله يتهم نفسه

بينما يسير غير ملتفت تتنازعه الأفكار المؤلمة إذ أوقفه الصوت الوقور الهادئ

- ما بك يا حنظلة؟

كيف أنت؟

من؟!

إنه يعرف هذا الصوت جيدًا

هو صاحب رسول الله ﷺ

هو الصديق رضي الله عنه

ها هو يناديه ويطمئن على حاله وقد لمحه باكيًا

- نافق حنظلةُ..

هكذا أجاب حنظلة والحزن يقطر من حروفه

لكن الصديق يعرف حنظلة ويحسن به الظن وقد حسن إسلامه وكان منذ إسلامه من أكثر الصحابة مسارعة للخيرات

كيف يقول عن نفسه ذلك؟

- سبحان اللهِ! ما تقول؟!

سأله الصديق منزعجًا ليتبين حقيقة قوله

أجاب حنظلة مفسرًا ذلك الضيق الذي يشعر به: نكون عند رسولِ اللهِ ﷺ يُذكِّرنا بالنار والجنةِ حتى كأنا رأيَ عَينٍ..

فإذا خرجنا من عند رسولِ اللهِ ﷺ عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ؛ فنسِينا كثيرًا

هكذا إذًا

اعتبر حنظلة أن هذا التفاوت دليل نفاق

فواللهِ! إنا لنلقى مثل هذا!

حتى أنت أيها الصديق؟

نعم

التفاوت بين الأحوال موجود وقد أقر بذلك صاحب رسول الله ﷺ

بل وأقره النبي نفسه

«والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتْكم الملائكةُ على فُرشِكم وفي طرقِكم. ولكن.. يا حنظلةُ! ساعةٌ وساعةٌ

يا حنظلةُ.. ساعةٌ وساعةٌ

يا حنظلةُ.. ساعةٌ وساعةٌ»

هكذا كررها النبي ﷺ وقررها

لكن تأمل تلك الحالة الأولى التي وصفها سيدنا حنظلة وأقرها سيدنا الصديق رضي الله عنه وذلك حين يكونون عنده ﷺ

حالة المشاهدة

«كأنَّا رأي عين»

كأننا نرى الجنة وقصورها ونعيمها وكأننا نعاين النار ولهيبها وزقومها وويلاتها

حالة متقدمة من التأمل والتخيل لخصها هذا الوصف

رأي عين..

لكن ما الأدوات التي استعملها رسول الله ليصل بهم إلى تلك الحالة؟

الحق أنه كان يُذَكِّرهم

لذا زاد النبي ﷺ في إجابته ان هذه الحالة توجد عند الذكر أيضًا

«لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذِّكر»

والذكر الأهم والأعظم هو القرآن وبالقرآن

فذكر بالقرآن..

بماذا؟

بالقرآن

إنها تلك القيمة التي تجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله مواعظ الواعظين وتذكرات الداعين ونصائح الحريصين وتوجيهات المربين

قيمة التذكير بالوحي..

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

لكن هذا لا يحدث لكل من يقرأ القرآن بل كثيرا ما يشتكي القارئ من عدم التأثر ويجد جدرانا تحول بينه وبين آيات ربه

أوضحنا من قبل في المرحلة الأولى من التدبر - مرحلة قبل التلاوة - أن حدوث التذكرة والتأثر بالقرآن يستلزم وجود قلب حي يتأثر بالموعظة القرآنية وتهز أركانه تلك المعاني المبهرة المبثوثة من خلال الوحي الكريم

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق:٣٧].

هكذا قالها الله واضحة جلية

من كان له قلب

هذا هو من يتذكر

قلب سليم ابتداءً

قلب يخشى الله ويتقيه

قلب يخاف الوعيد

وهذا ما حاولنا إقامته في مرحلة ما قبل التلاوة

وفي هذه المرحلة؛ أثناء التلاوة أود أن أقف مع تلك الطريقة التي أشار إليها سيدنا حنظلة وكانت هي بديل من كان له قلب في الآية السابقة

طريقة الاستماع والمشاهدة:

﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

تأمل قوله ألقى..

أن تلقي بجارحة سمعك على باب التدبر وأن تقطع كل العلائق السمعية الأخرى حين الاستماع للقرآن..

وأن تشحذ تلك الجارحة بكامل قوتها متشوقا لكل حرف قرآني تتلوه أو يُتلى عليك..

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

هكذا كان الأمر بالاستماع والإنصات إذا قُرئ القرآن

ذهبت طائفة من أهل العلم إلى قصر الآية على الصلاة كون المقصود بالإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه أثناء الصلاة وذهب آخرون إلى عموم الإنصات حال قراءته أو سماعه

❁ عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إِذَا جَلَسْتَ إِلَى الْقُرْآنِ، فَأَنْصِتْ لَهُ.

وهذا كان رد فعل الجن بمجرد أن سمعوا آيات القرآن تُتلى

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ [الأحقاف:٢٩].

الإنصات!

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع

وأن تفعل ذلك جنبا مع انتباه كامل وإيقاظ للذهن الذي يقع على عاتقه الركن الثاني لتلك الطريقة..

المشاهدة!

أن تنصت بأذنك لما يُتلى من آيات بينما تغلق عين بصرك لتفتح عين بصيرتك ولتشهد الأحداث والوقائع القرآنية كأنها رأي عين

ترى بعين الشهود مصارع الأمم ومهلك المجرمين الصادين عن سبيل الله

وتشهد أحداث القيامة وأهوال النشور ومحطات الآخرة التي تتوالى على سمعك كأنك جزء منها فأنت تدرك أنك ستكون يوما بالفعل جزءا منها!

تتأمل مواقف النبيين وبطولات المرسلين ومنازل الصالحين وكأنك كنت هنالك.. معهم

تحزن لحزنهم وتتهلل أساريرك لفرحهم وتصدع معهم بكلمات الحق التي قذفوها في وجه الباطل

تبحر مع نوح وتتوكل مع هود وتحطم الأصنام مع إبراهيم وتصبر مع أيوب وتُسبِّح مع داوود وتصدع مع موسى وتثبت مع يوسف وتعبد ربك مع محمد ﷺ حتى يأتيك اليقين

تنتقل من مشهد إلى آخر ومن قصة إلى أخرى وتدور مع المعاني والأمثال والمشاهد القرآنية حيث دارت

تلك ببساطة هي المشاهدة

التخيل والتأمل كأنها رأي عين

كل ما يجوز تصوره وتخيله تحاول أن تفعل

كل القصص السابقة ومشاهد هلاك الأمم الغابرة

موكب قارون وزينته ثم خسف الأرض به وإهانته

صولجان فرعون وعزته ثم غرقه بعد ذلك وذلته

قرى سدوم وعمورية وهي ترفع إلى السماء حتى تسمع الملائكة نباح كلابهم ثم انقلابها وجعل عاليها سافلها والحجارة تنهال عليها من السماء

يونس في الظلمات ويوسف في غيابات الجب

نوح وابنه حين حال بينهما الموج وإسماعيل حين أجاب نداء أبيه وأسلما وتله للجبين وكاد أن يُذبح امتثالا لأمر رب العالمين

وهكذا...

قسم ضخم من القرآن يمكنك مشاهدته بعين قلبك وبصيرتك أثناء التلاوة

الماضي المذكور

وكذلك شيء من المستقبل

الجنة والنار كان الصحابة يرونهما مع النبي ﷺ كأنهما رأي عين

تعبير واضح عن شهود القلب وتخيل البصيرة

كم من مشهد أخروي ورد ذكره في القرآن يمكنك تأمله بعين قلبك أيضًا

مشهد أهل الأعراف مثلًا

من يمكثون في ذلك المكان الذي يفصل بين أهل الجنة وأهل النار

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:٤٦].

حين يعرفون كل صنف بسيماه وعلاماته المميزة

وكما عرفوا أهل الجنة ونادوهم فإنهم كذلك يعرفون المجرمين أصحاب النار

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأعراف:٤٧].

إنهم يخافون هذا المكان الموحش القاسي ويدركون أنهم ليسوا بمعزل عنه

ولقد تركت الآيات مصيرهم معلقًا كما كان قرارهم في الدنيا معلقا

ولقد كان وقوفهم يوم القيامة طويلا في المنتصف

صحيح وردت بعض الآثار بأنهم سيدخلون الجنة بعد حين

لكن السؤال هنا... متى؟!

بعد كم عام من الانتظار؟!

تتخيل بينما تقرأ أي عذاب نفسي هذا الذي يتعرضون له وهم ينظرون إلى البشر من حولهم يساقون إلى الجنة وإلى النار وهم باقون منتظرون خائفون ويخيم عليهم ذلك الشعور الرهيب الذي لخصته تلك الجملة القرآنية الجامعة

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ...﴾ [الأعراف:٤٦].

إنها جملة يظهر منها استشرافهم الجارف للدخول، ورغبتهم العارمة في التنعم بنعيمها

هل يمر مثل هذا المشهد دون تخيل ومشاهدة

وغيره كثير من مواقف فُصل ذكرها في القرآن ويسعك مشاهدتها ببصيرة المتدبر

صحيح أن كل ما تخيلته عن الجنة لن يبلغ حقيقتها ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

لكن الوصف الموجود يكفي لشحذ خيالك

*** وكأنها مشاهدة**

*** كأنها رأي عين**

مالا يجوز أن تتخيله أو تتصوره هو الملك جَلَّجَلَالُهُ الذي ليس كمثله شيء

ما دون ذلك يجوز أن يسري عليه الوصف البليغ الذي صدرت به هذا الفصل

*** رأي العين**

فإن لم تفعل ذلك أثناء التلاوة كان البديل المؤسف

*** الصمم والعمى**

ليس ذلك المتعلق بالحواس

لكنه صمم وعمى القلب

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [الفرقان:٧٣].

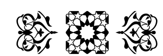
تلك من صفات عباد الرحمن

مع آيات الله وذكره لا يخرون صمًّا ولا عميانًا

لماذا؟

لأن لديهم بصيرة بها يشهدون ومن خلالها يستمعون ومن خلالها ينصتون

كذلك فكُن أثناء التلاوة



٥. أن تُعايش

أجواء حزينة، تلك التي خيمت على أهل المدينة أثناء ذلك الحدث الجلل

حالة من الصدمة، بلغت لدى بعضهم مراحل خطيرة

البعض لم يصدق

والبعض رفض أن يصدق

والبعض ألجمته الصدمة وأعجزته المصيبة، وأقعده الحزن، وألجم هول الموقف لسانه

لقد مات رسول الله ﷺ

قام الفاروق عمر رضي الله عنه فيهم بسيفه، مهددًا من قال ذلك، ومتأولًا أنه إنما ذهب للقاء ربه، كما فعل موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ،

الكل في حالة من الوجوم، وعدم القدرة على إدراك هذه الحقيقة، التي يعلنها الصديق رضي الله عنه الآن

ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات!

نعم قد مات

ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت

تلك هي حقيقة الأمر الواقع

هذا الدين، وتلك الدعوة، وهذه الأمة الوليدة، لن تقف مسيرتها لأجل بشر مهما كان قدره

حتى لو كان خير البشر، ﷺ،

حتى لو كان من أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور،

حتى لو كان القدوة، والمعلم، والصاحب، والموجه

نعم حتى لو كان هو، صلوات الله وتسليماته عليه،

في النهاية هو بشر

وهو ميت والكل ميتون

فليسمعوها إذًا من الصديق، تطرق مسامعهم، وكأنها المرة الأولى

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر: ٣٠]

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]

إنها الآيات تتلى

لم تتنزل الآن

يقينًا قد سمعوها مرارا من قبل فلماذا كان وقعها مختلفا هذه المرة؟!

الإجابة في كلمة واحدة تتلخص

المعايشة..

هذه المرة حين خرجت الآيات من قلب سيدنا أبي بكر كان المحل المتلقي في حالة مختلفة

لقد عايشوا الفقد

ولقد كان فقدًا مختلفًا تمامًا

لقد غاب عنهم رسول الله ﷺ

عندها كان للآيات أثر مباين

أثر دفع الفاروق حين سمعها لأن يقول: أو إنها في كتاب الله؟ ما شعرت أنها في كتاب الله!

تأمل السؤال الذي يشي بمدى المفاجأة التي أوقعتها الآيات على نفسه

لماذا قال ذلك؟

لماذا بدت له الآيات وكأنها المرة الأولى التي تطرق مسامعه

إنه أثر القرآن حين يعايش المرء معانيه ويدرك مدلولاته بشكل واقعي عملي

«المعايشة أساس الفهم»

جملة يحب المهتمون بالقرآن ومصاحبته أن يرددوها

فارق ضخم بين ذلك الفهم الناشئ عن معايشة واستشعار للأحداث والمواقف التي تتنزل الآيات مناسبة لها وبين الفهم الأكاديمي الجاف الذي يظن البعض أنه منتهى الغاية والمراد

وإن البون شاسع بين الأمرين

الحق أن كل من له اشتغال بمصاحبة القرآن مرَّ بهذه التجربة يوما

فجأة تمس روحه آية لطالما كان يسمعها ويرددها ولربما كان يحفظها لكن عند موقف معين أو حدث ما كان لها وقع مختلف

وقع المعايشة..

بالنسبة لي حدث ذلك أكثر من مرة أتذكر منها ذلك اليوم الذي دخلت فيه القوات الأمريكية إلى بغداد إبان حرب الخليج الثانية

في ذلك اليوم نقلت الشاشات صورًا لبعض العراقيين الذين يحملون العلم الأمريكي يدورون به في الشوارع مهللين ومرحبين بقوات يفترض أنها معادية محتلة!

في تلك الليلة كنت أصلي مأموما مهموما بتلك المشاهد القاسية فإذا بالآية تُتلى

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة:٥٢].

أو إنها في كتاب الله؟!

هكذا قلت لنفسي!

وكأن الآية تصف ما شاهدت بتفاصيله!

وكأني لم أسمعها قط رغم حفظي للسورة أصلا

وكأنها نزلت على عقلي مفسرة ثم مست خاتمتها قلبي مصبرة ومبشرة

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة:٥٢].

لماذا لم يكن للآية ذات الأثر أول مرة

إنه الموقف والحدث

والهمّ..

إن القرآن لم ينزل جملةً واحدة على النبي ﷺ، بل كان مُرتبطًا بأحداث ومواقف

كانت الآيات تتنزل متناسبة مع الواقع المحيط والهموم التي عايشها النبي وأصحابه

يبتلى النبي ﷺ في بيته وأحب الناس إليه ويخوض المنافقون في عرض زوجه في حادثة الإفك = فتنزل آيات سورة النور مبينة ومفصلة ومبرأة لأمنا عائشة رضي الله عنها

ينتصر المؤمنون يوم بدر نصرًا مبينًا ويذوقوا معاني القوة والشوكة وتبدأ لأول مرة مرحلة جديدة فيها من الغنائم ما قد يُتنازع عليها كما هو حال أمور الدنيا = فتنزل آيات سورة الأنفال مبينة لأسباب النصر ومرجعة إياه لتوفيق الله أولًا وآخرًا ومحذرة من أسباب الشقاق والتنازع وذات البين التي تؤدي للفشل وذهاب ذلك النصر

يحدث التنازع فعلًا ويسارع الرماة للغنيمة يوم أحد ويعصون أمر رسول الله ﷺ فتكون المصيبة ويستشهد خيرة الصحابة رضي الله عنهم = فتتنزل آيات آل عمران فيها البيان والهدى والموعظة لتكون خير منهج يحول بين المؤمنين ووقوع مثلها مرة أخرى

يُبتلى المؤمنون ويزلزلوا زلزالًا شديدًا حين ترميهم العرب عن قوس واحدة وتتحزب عليهم الأحزاب وتبلغ القلوب الحناجر = فتتنزل آيات سورة الأحزاب مثبتة ومعضدة ومبينة

لحال رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وآخرين كذبوا وأرجفوا وخانوا

وهكذا...

تخيل كل سورة مما سبق من دون الحدث أو العكس تخيل الحدث من دون السورة التي فصلت وبينت مراد الله معه ومنه

سيكون الحال مختلفًا أليس كذلك

سيكون حالًا يشبه بشكل أو بآخر الدراسات الأكاديمية التي أصر على تكرار مباينة القرآن لها تمامًا

القرآن نزل لنحيا معه وبه..

وهذا يكون كما قلت بطريق المعايشة

حسنا كيف نحقق ذلك في طريقنا لصحبة القرآن

أرى أن يكون ذلك عبر سبيلين

❁ أولًا محاولة استحضار أجواء التنزل واستدعاء الحالة الواقعية من السيرة والتي تنزلت فيها تلك الآيات

والأمر في الغالب يسير وهو يتم ابتداء بمطالعة تفسير من تلك التي تعنى بأسباب النزول وتوقيتها ومناسبتها؛ وحينئذ

سيدرك المرء بشكل مجمل ذلك الارتباط بين كل سورة أو مجموعة من الآيات وبين أحداث السيرة.

يلي ذلك بعض التوسع في فهم أجواء تلك الأحداث وذلك عبر مدارسة متدرجة للسيرة النبوية وتفاصيلها ومن ثم يستطيع قارئ القرآن ببساطة أن يستحضر تلك الأحداث أثناء التلاوة ويستدعيها أمام ناظريه

❁ ثانيًا وهو الأهم في رأيي = وجود الهمِّ نفسه

همٌّ مشابه لذلك الذي حمله الذين تنزل القرآن على النبي ﷺ وهو بين ظهرانيهم

هذا السبيل تحديدًا يحتاج إلى جهد من نوع مختلف فهي ليست مجرد خطوة يسهل تكلفها ولكنه طريق طويل يسلكه المرء ليحصل تلك الهموم الإيجابية الدافعة للعمل والتي كان الرعيل الأول يشعرون بها

يمكن جمع تلك الهموم في ثلاثة نقاط رئيسية

- همّ إرضاء الله
- همّ الآخرة
- همّ الدين

تلك الهموم الثلاثة استبدلها كثيرون بهمٍّ واحد معروف

❋ همّ الدنيا

أما النبي ﷺ وصحابته فما كان ذلك همهم الأول قط

تأمل مرور النبي ﷺ بآية فيها ذكر مشهد من مشاهد الآخرة

مشهد سؤال الله للمسيح عن قومه وعبادتهم له وإجابة المسيح

توقف النبي عند تلك الإجابة وظل يرددها باكيا في قيامه جل الليلة ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨].

لماذا؟

إنه الهمّ

أمتي أمتي

كان يحمل هم أمته وآخرتهم

لذا كانت المعايشة فرعًا عن ذلك الهم

بكى النبي كذلك عندما تلى عليه سيدنا ابن مسعود ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

بكى حين تذكر أنه سيشهد وأن من الأمة من ستكون الشهادة في حقه كاشفة يستحق على إثرها العذاب

إنه الهمّ مرة أخرى

وكلما مر بآية فيها عذاب تعوذ وإن حوت الآية نعيما سأل الله من فضله

وهكذا..

تخيل أن تقرأ القرآن وفي صدرك مثل هذا الهم

كذلك هموم الدين والأمة ودعوة الناس

أن

تخيل أن يقرأ من يحمل هم الدين ويتصدى لشبهات أعدائه ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٣].

أي أثر سيكون لها في قلبه

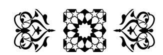
تأمل شخصًا مجتهدًا في الدعوة ويحمل هم هداية الخلق ودلالتهم على مراد ربهم يقرأ آيات عن سيدنا نوح وكفاحه مع قومه أثناء دعوتهم وصبره ألف سنة إلا خمسين عامًا على تلك الدعوة = هل سيستوى تأثره ومعايشته بمن لا ينشغل بهداية أحد ولو حتى نفسه؟!

أعتقد أن الفكرة قد اتضحت

احمل همًّا مشابهًا لما تخاطبه آيات القرآن = تجد أثرًا مشابهًا لما وجده أولئك الذين قرأوا القرآن وهم يحملوه

إن لم تستطع فحاول وابذل حتى تصل وإلى أن تصل يمكنك أن تستحضر تلك الأجواء التي عايشوا أثناءها تنزل القرآن

وأن تعايش ما عايشوه لعلك يوما تجد ما وجدوه



٦. أن تُجيب

التفاعل...

أحد أهم سبل التدبر وإقامة الصحبة المنشودة مع القرآن الكريم في المرحلة التي نتحدث عنها

أثناء التلاوة..

❁ كان النبي ﷺ إذا قرأ القرآن فمرَّ بآية فيها تسبيح = سبَّح... وكان لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ الله من فضله وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ

هكذا روي عنه في أكثر من رواية صحيحة

ثمة تفاعل واضح كما ترى

تفاعل يناسب كل معنى ومشهد قرآني يمر به النبي في تلاوته

❁ وفي «صحيح البخاري» أنه لَمَّا نَزَلَ قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ **قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ** ﴾ [الأنعام:٦٥] كان تفاعل النبي ﷺ أن قال مباشرة: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» ثم بعد أن

سمع قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، قالَ مباشرة: «**أعُوذُ بوَجْهِكَ**»، ولما خُتمت الآية بقوله تعالى ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**هذا أهْوَنُ هذا أهْوَنُ**» وفي رواية قال: «**هذا أيْسَرُ**»

كما ترى لا تمر الآيات بل الآية الواحدة دون انعكاس على النفس يؤدي إلى ذلك الذي نتحدث عنه

رد الفعل

التعامل مع القرآن بحيوية وتفاعل

في هذا الفصل نتناول تفاعلًا مع أسلوب يعد من أكثر أساليب القرآن انتشارًا وكثافة

أسلوب الاستفهام..

السؤالات القرآنية وما أكثرها

أحد أهم أساليب التغيير في القرآن وربما أكثرها تكرارًا

ما يزيد عن مائتين وألف سؤال أغلبها أسئلة يسألها الله سبحانه وتعالى لخلقه!

إن الأصل في أسلوب الاستفهام في كلام العرب أنه يستعمل للاستفسار عن أمر يجهله السائل وهو في التعريف: طلب خبر ما ليس عندك، أو هو طلب الفهم. هذا من حيث الأصل ولا شك أنه بهذا المعنى -طلب علم أو فهم غير موجود = يستحيل في حق الله سبحانه وتعالى عن كل نقص

لكن الاستفهام قد يستعمل في أحيان كثيرة على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة كقول أحدنا لغيره كم مرة حذرتك من كذا أو نبهتك لكذا؟

السؤال هنا بلا شك لا يراد منه حقيقة الاستفهام عن عدد مرات التحذير بل المراد منه مثلا في هذا السياق لفت النظر لسابق التنبيه واللوم على الوقوع في الأمر رغم ذلك التحذير المتكرر منه

۞ ولله المثل الأعلى

في السياق القرآني يتجلى أسلوب الاستفهام بشكل واضح وفي سياقات متعددة يتميز بها القرآن وينبغي الانتباه لها وفهم مقاصدها بشكل تفصيلي لإدراك الرسالة القرآنية المرادة بهذا الكم الهائل من الأسئلة

❁ فهل أنتم منتهون؟!

هذا السؤال القرآني والذي جاء عقب ذكر مفاسد الخمر والميسر ومراد الشيطان من تلبس بني آدم بمقارفتهما = يعد من أهم النماذج للأسئلة القرآنية وتعد إجابته والتفاعل معه نموذجا أوضح لما نتحدث عنه من حيوية في التعامل مع النص

رب العالمين سبحانه يسأل من استمعوا لكلامه عن خطورة الخمر والميسر..

يسألهم عن رد فعلهم المتوقع والذي لا ينبغي إلا أن يكون الانتهاء والكف عن تلك الخبائث

هنا يوضع متدبر القرآن في مواجهة هذا السؤال الحاسم والتي يتخذ قيمته عظمى عندما يدرك بقلبه طبيعة السؤال

إنه سؤال رباني

مولاه وخالقه ومن يملك له النفع والضر والإحياء والإماتة والرزق وسائر تصاريف حياته والكون الذي يعيش فيه هو من يسأله

حينئذ لا يملك إلا أن يسارع بالإجابة الوحيدة التي يمكن أن يقال عنها إجابة صحيحة

انتهينا يا رب

كانت هذه هي إجابة الصحابة رضي الله تعالى عنهم حين خوطبوا بهذا السؤال

وتلك إجابة بالقول

أيضًا كانت هناك إجابة بالفعل وذلك تمثل في إراقتهم لما كان لديهم من خمر لتجري في شوارع المدينة النبوية استجابة وتغييرا فوريا على إثر ذلك الأسلوب التغييري في القرآن

۞ أسلوب الاستفهام

وهاهنا جاء الاستفهام بقصد الطلب والتوجيه كما هو واضح

إذا يكون التفاعل المنتظر مع هذه النوعية من الأسئلة = تحقيق المطلوب وسلوك السبل التي تم التوجيه إليها

وهذا ما حدث

لكن أحيانا يأتي السؤال القرآني في سياقات مختلفة

أحيانًا يقصد به التعجب من فعل معين كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾ [البقرة:٢٨].

وأحيانًا يأتي السؤال ويراد به العتاب واللوم كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]، وقد فهم الصحابة هذا المراد فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين!

وقد يرد السؤال استفهاميا لكن يراد به النفي كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس:٩٩]، أي: أنك لا تكره أحدا على الدخول في زمرة المؤمنين

وثمة نماذج أخرى كثيرة من مقاصد الاستفهام في القرآن منها التخويف

- كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:٣]

- ومنها التفخيم كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٩].

- ومنها التنبيه والدعوة للتفكر كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، أو قوله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى

ﭐلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

- ومن ضمن مقاصد الاستفهام القرآني أيضًا = التحقير كقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢١].

- وقد يأتي الاستفهام ويراد به الإخبار، كقوله تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [النور:٥٠].

هذه الآية تخبر عن المنافقين، وأن أمرهم لا يخرج عن أن يكون في قلوبهم مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم.

وأحيانًا يقصد بالاستفهام حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر ما، كقوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي: أنا ربكم.

- ومنه قوله سبحانه: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾ [الزمر: ٣٦]، أي: الله كاف جميع عباده.

إذًا ليس المراد في الآيتين حقيقة السؤال، ولكنه حمل العباد على الإقرار بربوبية الخالق، وكفايته لخلقه.

أيضًا يأتي الاستفهام القرآني ويقصد به الترغيب والحض على فعل معين كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥].

هذا السؤال يعد مثالًا واضحًا لقضية التفاعل العملي من خلال الاستفهام القرآني خصوصًا حين يستحضر إلى جواره تفاعل الصحابي أبو الدحداح مع هذا السؤال لما سمعه فأتى رسول الله ﷺ وقال مندهشًا: أويستقرضنا ربنا؟!

وحين فهم مقصد الحث على النفقة من خلال تلك الصياغة القرآنية ترجم تفاعله القولي مباشرة لتفاعل عملي فتصدق ببستان كامل كان يمتلكه وقال البستان قرض لله!

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [النور:٢٢].

وهو السؤال الذي تفاعل معه سيدنا الصديق رضي الله عنه وأجاب قائلا: بلى واللّه إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا

دائمًا كانت هذه الجملة التي رويت عن الصديق أبو بكر ﷺ محل تفضيل من الدعاة والمصلحين والمربين حين يعظون الناس في شأن العفو والصفح والتغافر

رجل أنفق عليه الصديق أعواما وقيل أنه قد تربى في حجره يتيما ثم يكون المقابل أن يخوض في عرض ابنته وزوجة نبيه مع من خاضوا في الإفك المبين ومع ذلك يتناسى الصديق كل هذا ليعود إلى عطائه والإغداق على مسطح من جديد

ويعفو..

أمر مذهل يقف المرء طويلًا أمامه مشدوهًا متأملًا

كيف فعلها؟!

كيف استطاع تحملها وحمل نفسه عليها وإنها لكبيرة إلا على من وفقه الله لاحتمالها؟!

كيف قابل هذه الإساءة البشعة بإحسان فضلا عن صفح وغفران؟!

الإجابة عن تلك الأسئلة ببساطة تتمثل في الكلمة الأولى التي قالها الصديق ﷺ

كلمة: بلى...

إنها كلمة تستعمل كجواب لاستفهام دخل على نفي فتفيد إبطال هذا النفي وإثبات المعنى

وهي هنا إجابة السؤال الرباني الذي نزل به الوحي مخاطبا كل من له حق يمكن أن يصفح عنه

ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟!

طبعًا نحب...

ومن لا يحب؟

ربما لا أكون مبالغًا لو قلت بيقين جازم أنني لا أتصور مسلما صحيح الإسلام تام الأهلية يعي معنى هذا السؤال ثم يملك أن يجيب بإجابة غير تلك التي أجاب بها الصديق رضي الله عنه

وهل يتصور أحد أن تكون إجابة مسلم عن هذا السؤال: نعم يا رب لا نحب أن تغفر لنا؟!

هل يتخيل مخلوق أن يجرؤ مؤمن بالله واليوم الآخر على رفض المغفرة؟!

أعتقد أن ذلك مستحيل عقلًا وشرعًا

إذن فما السبب الذي يؤدي لهذا البون الشاسع بين رد فعل عموم المسلمين تجاه تلك الآية ومثيلاتها وبين رد فعل الصديق

إن مناط ما فعله الصديق يكمن فيما نتحدث عنه وندعو إليه

التفاعل..

في كونه تعامل مع السؤال القرآني على أنه موجه له

على أنه مخاطب به

وهنا أجاب..

وكانت الإجابة متوقعة والمنطقية: بلى وَالله إِنِّي لَأُحِبّ أَنْ يَغْفِر الله لِي!

ثم أعاد إِلَى مِسْطَح نَفَقَته الَّتِي كَانَ يُنْفِق عَلَيْهِ وَقَالَ: وَالله لَا أَنْزِعهَا مِنْهُ أَبَدًا

الملاحظ أن جُل ما ذكرناه من الأسئلة القرآنية لم ترد إجاباتها بين دفتي المصحف فالحقيقة أنها رغم كونها ليست أسئلة لطلب علم غير موجود كما سبق وبيَّنت؛ إلا أن رب العالمين يريد لعباده أن يجيبوها ويتفاعلوا معها كما رأينا في كثير من النماذج القرآنية

إنه إحساس أصحابها بأنهم مخاطبون بتلك الأسئلة وأن رب العالمين يسألهم هم

* يستبطئهم هم

* يعاتبهم هم

* ينهاهم هم

* يذكرُّهم هم

من هنا شعروا أن عليهم أن يجيبوا

ومن هنا يأتي التغيير من خلال حسن التعامل مع تلك الأسئلة وإجابتها

وكذلك كانت دائما ردود الأفعال والتغيير الإيجابي عند أولئك الذين أدركوا تلك الحقيقة التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ونكملها هنا

حقيقة أن الله يتكلم ويسأل

و أنهم مخاطبون بكلامه وأسئلته

من يدرك ذلك لابد أن يتفاعل وأن يجيب ويستجيب

هذا ما كان من إجابة الأنبياء عن الأسئلة التي وُجهت لهم من رب العالمين جَلَّجَلَالُهُ

حين يسأل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن اتخاذ الناس له ولأمه إلهين من دون الله سيجيب قائلا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦].

هكذا كان التعامل تلقائيًّا بديهيًّا مع الأسئلة

ويتضح الأمر أكثر حين تكون الأسئلة ذات طبيعة تغييرية

ولعل أوضح الأمثلة على تلك النوعية من الأسئلة ما وُجه لنبي الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

حين نودي آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقيل له ولزوجه: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:٢٢].

عندها كان التفاعل مباشرا والإجابة سريعة وواضحة محددة وكان التغير بالتوبة والأوبة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

تفاعل تغييري شبيه حدث مع قول الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦].

ألم يأن؟

سؤال آخر لابد له من إجابة

ولا تصح له إلا إجابة واحدة فلا يستطيع عاقل لو فكر قليلا إلا أن يجيب ملك الملوك قائلا بالقول والعمل: بلى قد آن قد آن

فقط يحتاج أن يستشعر أن السؤال موجه إليه وستأتي الإجابة بإذن الله

حين وقعت تلك الكلمات من قلب الفضيل بن عياض موقع التجاوب والشعور بالمخاطبة كانت الإجابة وكان التغيير الشامل في حياته وصاح معلنا إياها: بلى يا رب قد آن... بلى يا رب قد آن

هذا ما فعله الصحابة وأشرت إليه بشكل عابر منذ سطور حين سمعوا نفس الآية التي تفاعل معها الفضيل لم يكن بعيدًا عن رد فعله فقد تفاعلوا هم كذلك مع الآية والسؤال الرباني المحكم واعتبروه معتبة موجهة لهم فقال بن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا ربنا إلا أربع سنوات

* وقال ابن عباس: «استبطأ الله قلوب المؤمنين فعاتبهم»

وروى أنهم كان بعضهم يعزى بعضا بعد استشعارهم لخطورة ذلك السؤال وقيمة تلك المعتبة والاستبطاء

لأجل مثل هذا التفاعل أثنى النبي ﷺ على الجن حين سمعوا آيات من سورة الرحمن فكان تفاعلهم أفضل من تفاعل الصحابة مع السؤال القرآني

لا بشيء من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد

تلك كانت إجابة تلك المخلوقات حين استمعت لذلك السؤال القرآني المتكرر في أكثر من ثلاثين موضع في سورة الرحمن

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣]

«لقد كان الجن أحسن ردًا منكم، كلما قرأت عليهم فبأي آلاء ربكما تكذبان، قالوا: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد»

هكذا بيَّن رسول الله ﷺ حدوث ذلك التفاعل من الجن مع السؤال القرآني وكذلك أوضح استحسانه لذلك التفاعل في

مقابل تلقي الآيات بدون رد فعل أو إجابة وتجاوب مع هذا السؤال

الجن أدركوا أنهم مخاطبون بذلك السؤال = فأجابوا

وفي كل مرة يتكرر السؤال كانت تتكرر الإجابة

وبخلاف مضمون الإجابة الرائع والذي يحتوي إقرارا عقديا بنعم الله وآلائه وحمده وشكره عليها = فثمة قيمة ينبغي لمتدبر ذلك الموقف أن يتأملها

قيمة التفاعل مع سؤالات القرآن

هذه النماذج المتعددة لتفاعلات وتجاوبات مع سؤالات المولى عَزَّوَجَلَّ ونداءاته تعد غيضا من فيض نماذج لا تحصى كانت رد الفعل الطبيعي من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين يُنَادَون أو يوجه إليهم الكلام فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون

وهذا ما فعله ويفعله من يدركون قيمة النداء الرباني ويعون حقيقته ويستشعرون مخاطبتهم به

وذلك هو الفارق الرئيس بيننا وبينهم

الفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسارعته بالإجابة والعفو

والفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي الدحداح الذي تخلى عن ثروته المتمثلة في حديقته الغناء امتثالا لآية من كتاب الله

والفارق الرئيس بيننا وبين الفضيل بين عياض الذي تغيرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب

إنه الفارق الرئيس بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذي عطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم وقد أجابوا واستجابوا

وغيروا وتغيروا..

الفارق أنهم تعاملوا ابتداء مع القرآن على أنه كلام الله لهم وعلى أن أسئلته موجهة لهم هم

على أنها دافع لتغييرهم هم

ليس كما يفعل البعض من الاكتفاء بمجرد الترتيل الخاوي من الفهم والذي هو غاية مقاصدهم متناسين أو متغافلين عن التعامل مع هذا العنصر المهم من عناصر الخطاب القرآني

عنصر السؤال..

٧. وأن تستجيب..

في تلك الليلة المطيرة الباردة وبين جنبات صحراء موحشة وظلمة ليل حالك؛ ضل طريقه الذي كان قد سلكه عائدا بعد كل تلك الأعوام إلى البلد الذي نشأ وتربى فيه

لكنه ليس وحده هذه المرة

إن معه أهله قد ارتحل بهم بعد سنوات قضاها في عمل دؤوب كما وعد..

العجيب أنه كلما قدح الزناد ليوقد نارًا يستضيء بها ويستدفئ هو وأقرب الخلق إليه لم يستجب له

يبدو ألا فائدة من المحاولة

الرياح والأمطار لا تسمحان لأي شرر أن يكتمل اشتعاله

لحظة...

ثمة شيء يتحرك في الجانب الآخر من الجبل

إضاءة مهتزة هي.. تشبه تلك الصادرة من النيران حين يتراقص لهيبها

يبدو أن هناك من استطاع إيقاد جذوة من نار رغم هذه الريح العاتية

أضاء له الأمل من جديد وقد أدرك أنه سيجد هنالك الهدى

ثمة من سيرشده إلى طريق العودة أو على الأقل لن يمانع أن يشعل شهابا يعود به لأهله يعينهم على إكمال تلك الليلة في دفء وضياء

سارع بلهفة إلى البقعة المضيئة..

يبدو مصدر الضياء عند تلك الشجرة التي تظهر من بعيد

لكن.... هذه ليست نيران عادية كالتي يعرفها

هذا نور..

نور لم يشهد مثله قط

وربما لم يشهد أحد قبله مثله

نور أنَّى يراه

عندئذ نودي...

وهنالك كُلِّم

حينها تغير وصفه واستقر نعته

لقد صار كليمه

﴿ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٨]

من؟!

من يتكلم؟

من ينادي؟

﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠]

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه:١٢]

كانت هذه هي أولى الكلمات التي قالها الله جَلَّجَلَالُهُ لنبيه موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ

لقد ذهب يلتمس هدى فلم يُحرم الهدى الأعظم وأراد نورا يضيء لأهله فأُعطي نورا لتستضيء به أمته

مهيبة هي تلك اللحظة

مهيبة وعظيمة ولعل أعظم ما فيها هو ما غير وصف موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ

الكلام

النداء

أن يكلمك ربك ويناديك فتلك وربي نعمة لا تضاهيها نعمة وشرف تعجز كل التعابير البلاغية عن وصفه

لقد صار موسى كليمًا لله

﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

لا يمكنني تصور شعور سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تلك اللحظة الفاخرة

حين كُلِّم..

لقد فهم موسى تلك الحقيقة من البداية وحتى النهاية

فهمها وتفاعل معها وكذلك كان دوما

كان يكلم ربه ويرد على نداءاته وسؤالاته

بل كان أحيانا يفصل فيما يصح فيها الإجمال ربما لأنه يريد أن يستزيد من ذلك الشرف

شرف التفاعل مع كلام الله

حين سأله المولى جَلَّجَلَالُهُ عما في يمينه أجاب مستفيضا في إجابته: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨].

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: هي عصاي

لكنها المناجاة

التودد والتفاعل مع كلام الملك جَلَّجَلَالُهُ

والعجلة إلى ذلك الشرف كلما سنحت الفرصة

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٨٣].

﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤].

هكذا كان شعاره وتلك كانت إجابته

وبذلك كان إلى النهاية يستشعر تلك المعية ويتحدث عنها

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢].

ولم يكن ذلك التفاعل حكرا على نبي الله موسى وحده

لقد كان ذلك دوما هو رد فعل من أدركوا تلك الحقيقة وعاشوا بتلك القيمة الكبرى

حقيقة أن الله يتكلم وقيمة أنهم مخاطبون بكلامه وأن تلك النداءات إنما هي موجهة لهم

إن نبي الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن أول من نودي باسمه أو لقبه

❁ **لقد نودي من قبله آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ**

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥].

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣٣].

❁ **ونودي نبي الله إبراهيم كذلك**

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٦].

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [هود:٧٦].

۞ ومن بعدهم نودي المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

۞ ونودي نبينا محمد ﷺ في خمسة عشر موضع من القرآن

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [المائدة:٤١].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤].

❁ الرسل جميعًا صلوات الله وسلامه عليهم؛ نودوا..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون:٥١].

في هذه النماذج وغيرها كثير كان النداء موجها لأعيان معروفين من النبيين والمرسلين

❁ وهناك مواضع أخرى تم فيها النداء لغير الأنبياء

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠].

❁ بل أحيانًا وُجه النداء لمخلوقات بخلاف البشر

- الجبال مثلًا

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ:١٠].

في كل ما سبق من مواضع وغيرها كثير كان المنادى معينا ظاهرًا ومن ثم كان التفاعل والتجاوب مع النداء ظاهرا واضحًا في أغلب المواقف

لكن ماذا عن عشرين موضع كنت أيضًا أنت المنادى فيهم بصفتك من الناس؟

وماذا عن ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ﴾ و﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦].

﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٣].

وماذا عن النداء الأهم والأكثر تكرارًا

ماذا عن تسع وثمانين آية كنت فيها أنت المنادى

أنت أيها المؤمن

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:٣١]

❁ أتى رجل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال اعهد إليَّ

قال ابن مسعود: إن استطعت أن تكون أنت المحدث وإذا سمعت الله تعالى يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه.

هكذا كانت وصيته الذهبية لكل من قرأ أو استمع لمثل ما سبق من نداءات وكلمات

وتلك كانت وصفته التغييرية عبر هذه الوسيلة التي نتحدث عنها في هذا الفصل

أن تكون أنت المُكَلَم والمنادى حتى لو تسمع اسمك أو لقبك

يكفيك وصفك

أن تستشعر حقيقة أن الله يكلمك... أنت

ويناديك أنت

تحدثنا من قبل عن هذه الخطوة الأولى للتجاوب مع نداءات القرآن وخطابه التغييري

أن ندرك كون هذه الآيات = كلام الله لنا

وفي الفصل السابق ذكرنا نوعا من التفاعل مع أسلوب قرآني وهو الاستفهام والتفاعل المطلوب معه من خلال الإجابة

في هذا الفصل نتحدث عن الاستجابة..

استجابة لنداء الله جَلَّ جَلَالُهُ

هكذا ينظر للقرآن ونداءاته

على أنها موجهة إليك أنت

للأسف الشديد كثيرًا ما نتعامل مع القرآن على أنه فقط كتاب شعائر تعبدية محضة وكأنه ترانيم غير مفهومة أو غير ذات دلالة

ومنا من يتعامل معه على أنه وسيلة لتحصيل الحسنات وجمع الثواب في المواسم التعبدية وحسب، بينما ننسى أو نتغافل عن تلك الحقيقة العظمى

أن ربنا يتكلم..

وهذا القرآن هو كلامه

هو حبله الممدود طرفه بأيدينا كما وصفه رسوله ﷺ

لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله ومعاملته بهذه الصفة والإحساس بآثارها وتدبر تجلياتها وجعلوا فقط يتصارعون ويتمارون على إثباتها فكانوا كمن ظل يثبت عظمة وجلال كتاب وينفق الأوقات على إثبات نسبته لصاحبه ثم لم يجد الوقت لفتحه أو قراءته

أو كمن دعي إلى وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها.

❁ ولله المثل الأعلى

تحدثنا من قبل في صفحات هذا الكتاب عن كون صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها على الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها

ورغم أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد تكمن في آية واحدة

في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة لك أنت

تنتشلك معانيها..

تشفيك موعظتها..

وتضيء توجيهاتها طريقك..

يخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك

أن تشعر بحقيقة أن ملك الملوك يخاطبك أنت

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة لنا

لك ولي...

كيف إذًا لا أرد؟

كيف لي ألا أتفاعل؟

وهل يسعني أن أعرض وألا أجيب ولا أستجيب؟

هل حاولت من قبل أن تتعامل مع القرآن من هذا المنطلق؟

هل حاولت أن تتفاعل معه؟

أن تجيب نداءاته

تمتثل لأمره

تنتهي عن نهيه

هل حاولت أثناء التلاوة استشعار كونك أنت المخاطب؟

أنت

نعم أنت..

القرآن يحتشد كما ذكرت بالنداءات الموجهة لك أنت

أكثر النداءات في القرآن نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ويليه نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

والنداءان يشملانك

كل كلمة ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ أو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ تشملك أنت

الله ينادي ويدعو عباده

وأنا وأنت من عباده

يدعوك أنت ويدعوني أنا وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه

يدعوك ليغفر لك من ذنوبك

يدعوك لدار السلام والجنة والمغفرة بإذنه

يدعوك لما يحييك ويناديك لما فيه خيرك

كم امتلأ كتابه بالنداءات التي لم ترعها سمعك

كم مرة سمعت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾

نعم هذا أنت

أنت المنادَى وهو المنادِي

هل لابد أن ترى اسمك مكان كل كلمة ﴿عِبَادِى ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أو ﴿ٱلنَّاسُ ﴾ وسائر تلك الكلمات التي تأتي بعد النداء لكي تشعر أنك أنت المخاطب والمنادى؟

إن (النداء) هو أسلوب من أساليب الكلام في لغة العرب وطريق من طرق الخطاب بين المخاطِب والمخاطَب للتواصل والتقارب والتفاهم

يُعرف (النداء) بأنه طلب الإقبال من المخَاطَب بحرف من أدواته

وقد اعتمد القرآن أسلوب النداء في توصيل رسالته للعالمين

وأنا وأنت من العالمين

لماذا إذًا لا تحاول أن تتجاوز الأسماء والألقاب وتغوص بقلبك في حقيقة المعنى

وتستمتع بشعور جديد

شعور أن ربك يناديك

يكلمك..

ويدعوك ليغفر لك

حاول

وصدقني إن شاء الله ستشعر بفارق كبير في المرحلة التي نتحدث عنها لمصاحبة القرآن

مرحلة أثناء التلاوة

حاول وستلمس بإذن الله تغيرا واضحا في علاقتك بربك

وبكلام ربك

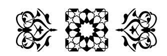
فقط إن ترسخت في نفسك تلك القيمة

قيمة أن الله يكلمك

ويناديك

وأن عليك أن تُجيب

وتستجيب..



٨. أن تتأسى

- السيدة آسية امرأة فرعون..
- السيدة مريم ابنة عمران..
- صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن..
- امرأة نوح..
- امرأة لوط..
- بلعم ابن باعوراء..

هذه الشخصيات - على تباينها - الواضح تشترك قرآنيا في أمر محوري يوضح خصيصة مهمة من خصائص الخطاب القرآني

إن المشترك بين ذكر هذه الشخصيات في القرآن هو اقترانها جميعا بلفظ المثل

كل منهم ذكر على إنه = مثل

ومن الأنبياء كذلك من اقترن ذكره بهذا اللفظ

المثل..

- ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف:٥٧].

- ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ [التحريم:١١].

- ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم:١٢].

- ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴾ [الكهف:٣٢].

- ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ ﴾ [التحريم:١٠].

- ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦، ١٧٧].

لعلك لاحظت في الآيات السابقة الاشتراك في اللفظ المتكرر بين القوسين - المثل - عدا في آية السيدة مريم لكنها تشترك مع ما قبلها بالعطف فهي المثل الثاني للذين آمنوا بعد امرأة فرعون

ذكر الشخصيات في كتاب الله ليس إذًا مجرد سرد تاريخي أو بيان قصصي لأقوام أو لأحداث مرت مرور الكرام

إنه مثل

نموذج

تطبيق عملي لمعاني القرآن وقيم الشريعة، وتجليات واقعية لتوجيهات الدين ومقتضيات المعتقد

إنَّ الله أنزل القرآن آمرًا وزاجرًا، وسنة خالية، ومثلًا مضروبًا»

ورد هذا الأثر موقوفًا عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وورد كذلك مرفوعًا بأسانيد لا بأس بها

والحق أنها كلمات جامعة ينبغي لمن أراد إلقاء نظرة موضوعية شاملة على القرآن أن يضعها نصب عينيه

إنه عرض موجز لبعض أهم محتويات الخطاب القرآني

أوامر وزواجر

سنن قد خلت

أمثلة مضروبة

في هذا الفصل نتحدث عن أحد أهم تلك المحتويات

السنن الخالية والأمثال الحقيقية

النماذج..

في هذه المرحلة من رحلتنا لمصاحبة القرآن - مرحلة أثناء التلاوة - سنمر كثيرا على تلك النماذج القرآنية

سنمر على أمثلة حقيقية وأخرى معنوية

وإنها لعمري خاصية متفردة يتمتع بها الوحي العظيم تجعل له هذه القدرة التغييرية الواضحة

خاصية يطيب لي أن أسميها «النماذجية»

تلك القدرة على إقامة النماذج الحية وطرحها ظاهرة جلية بين يدي متدبر القرآن

تصوير شامل ومتكامل تبرز من خلاله ملامح واضحة تمام الوضوح لشخصيات يحتاج الإنسان لأن يقف أمامها طويلا أثناء تدبره وتلاوته ومصاحبته القرآن

شخصيات قد يجد المرء نفسه وهو يطالع ملامحها كأنما يتأمل انعكاسا لصورته في مرآة

أو انعكاسا لتلك التي كان يتمنى أن تكون هي ملامحه في تلك الصورة

أو هي تلك الأخرى التي يخشى أن تكون له يوما وينفر تمام النفور من ملامحها القبيحة

بهذه الخاصية العجيبة يتمكن القرآن بحيوية لا تجد نظيرا لها من تشكيل ملامح الشخصية المسلمة

ومن ثم يغيرها للأفضل

فقط إن قرر صاحب تلك الشخصية أن يقف متدبرا متأملا للنماذج التي يعرضها عليه القرآن

كثيرا ما تكون تلك النماذج مطلقة غير معينة أو محددة فلا نعرف لأصحابها اسمًا ولا وسمًا

عباد الرحمن..

- المؤمنون حقًّا

- القانتون والمخبتون

- المخلصون

وفي المقابل ستجد نماذج المنافقين..

- المرجفين

- الكافرين

- الفاسقين

- الظالمين

هكذا تطلق أمثلة ذات ملامح تفصيلية لفئات ربما لا يذكر أسماء أعيانهم ولكن يعرفك القرآن خصالهم وطبائعهم

وهذا هو الأكثر في القرآن حيث محدودية التسمية خصوصًا حين يأتي ذكر نماذج الباطل

وذلك لتأكيد كون حقيقة المعركة الرئيسية للمصلحين هي مع الخلل نفسه والمبتغى الرئيسي هو بيان زيفه وبطلانه بإطلاق

واطراد ثم محاولة إصلاحه بشكل عام وشامل يناسب الحاضر والمستقبل قبل الانشغال بتفاصيل آنية وأعيان فانية

كم مرة ذُكر في القرآن كافر باسمه؟

وكم مرة عُين منافق بلقبه؟

وكم مرة أُخبر عن فاسق أو فاجر بنَسَبه؟

وما نسبة ذلك لذكرهم بصفاتهم وأفعالهم وقبيح أعمالهم؟

إبليس.. فرعون.. هامان.. قارون.. أبو لهب.. السامري.. امرأة نوح وامرأة لوط

هؤلاء تقريبًا هم من ذُكروا من أمثلة أهل الباطل بأعيانهم في القرآن

أضف إليهم إن شئت بعض الآيات التي وردت حولها روايات تذكر كونها نزلت في شأن أناس بأعيانهم كالنمرود وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة وبرصيصا العابد المنتكس وبلعم بن باعوراء الذي أوتي آيات الله فانسلخ منها

لكن هؤلاء لم يذكروا بأسمائهم أعيانا ولتظل الآيات التي تحدثت عنهم على إطلاقها ولتبقى صالحة لتطبيقها وقياسها على كل من سار على ذات النهج وتنمط بنفس النمط السلوكي

هذا طبعًا بخلاف الآيات التي تحدثت عن أقوام بمجملهم كقوم عاد وثمود وبني إسرائيل والسحرة وغيرهم

لكن حتى هذه النماذج المعدودة التي ذُكرت بأسمائها أو تحدثت عن أشخاص معلومين = يعد أصحابها رؤوسا وأمثلة لأنماط بشرية معروفة

وهنا تبرز فكرة النماذجية التي أتحدث عنها والتي لابد أن نلحظها أثناء تلاوتنا

على سبيل المثال نجد نموذج الغني المستكبر بماله والمغتر بعلمه وثرائه = ويمثله قارون طبعًا وأيضًا صاحب الجنتين

ثم نموذج المستبد المتسلط والطاغية المتجبر الذي يجتمع فيه الغرور مع الغباء والبطش وبعض الحمق والسفه وربما شيء من الجنون = ويمثله بلا منازع فرعون

أما نموذج المُضل المحرف الذي يضلل الخلق على علم ويكذبهم لأجل غايات حقيرة تسول لها بها نفسه فيمثله السامري بلا شك

وهامان كنموذج لحاشية السلطان الجائر التي تطيعه في كل باطل وتمهد له كل منكر

وبنو إسرائيل كنموذج صارخ للتمرد والعصيان وسوء الأدب مع الله ورسله

وهكذا في سائر النماذج المسماة في القرآن لأهل الباطل

الأصل في النماذج المذكورة أنها تصلح بشدة لجعلها معيارًا لقياس الأنماط السلوكية الشبيهة في كل زمان ومكان

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٥].

هذا بالنسبة لنماذج وأمثلة الباطل وأهله

في المقابل تكثر النماذج المعينة والأمثلة المعلومة لأهل الحق وحملة الضياء المحددين والمعروفين بأعيانهم

وكأنها لوحة شرف نورانية خلدت ذكر الصالحين عبر الأزمان ووجهت رسالة لكل من يمر مفادها: دونك الأسوة والعبرة والمثل = فبهداهم اقتده

الصدِّيقون والصدِّيقات والصالحون والصالحات:

- آسية امرأة فرعون
- مريم ابنة عمران
- وأمها
- وأم موسى
- ووليدها نفسه سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ
- وسائر النبيين والمرسلين الذي ذكروا إجمالًا وتفصيلًا بين دفتي المصحف

كل هؤلاء عُيِّنوا بأسمائهم وعرفوا بشخصياتهم

وهذه الشخصيات أيضًا تنطبق عليها قاعدة النماذجية التي أتحدث عنها

أما الأنبياء والمرسلين فكل من يتدبر قصصهم في القرآن وكيف جعل الله سيرهم ومواقفهم يدرك كون تلك السير = مشعل هداية واقتداء لكل من تدبرها

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٩٠].

إنها نماذج تحوي العبرة والموعظة والذكرى وتعين كل سالك إلى الله على الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

كل نبي من الأنبياء ذكر القرآن قصته أو موقف من مواقف حياته = ستجد فيه نموذجا ومثالا عليك أن تتأمله أثناء تلاوتك

عليك ألا تمر عليك خصائص كل نبي إلا وقد تمثلتها وحاولت الاقتداء بها

* مثلًا.. ستجد في حياة نبي الله آدم نموذج المسارعة إلى التوبة والندم بعد المعصية

* وستجد في حياة نبي الله نوح نموذج التفاني الرهيب في الدعوة إلى الله وطرق جميع أبوابها والصبر المذهل على تكاليفها وعدم استعجال ثمرتها مهما تأخرت

* وستلمس في نموذج نبي الله إبراهيم حسن الوفاء بكل ما يُكلف به المرء والإتمام المطلق لما يختبر به الإنسان ويبتلى مهما كانت التضحية والصعوبات

* وستجد نموذج القوة في الحق عبر مثال نبي الله موسى

* ستجد في نبي الله هود ذلك الثبات المدهش في مواجهة القوة الباطشة التي لم يخلق مثلها في البلاد

* وستجد نموذج الحرص على القوم وحسن خطابهم في نموذج نبي الله شعيب

* وستجد العفة والصبر عن الفتن والمغريات في حياة نبي الله يوسف

* وستلحظ اليقين الرائع في سيرة أبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

* وسيدهشك في حياة نبي الله داوود كم التوازن العجيب بين جوانب الدين المتعددة من تعبد وتنسك وعلم وجهاد وكل ذلك إلى جوار الملك والصنعة وكسب اليد

* أما الصبر على البلاء وحسن الظن رغم انقطاع الأسباب فسيكون مثلك الأعلى فيه نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

وهكذا لن تعدم من كل نبي ورسول مثلا وقدوة ونموذجا يحتذى ويلتمس هديه

أما نماذج الصالحين والصالحات من غير الأنبياء فقد كثرت أيضًا في القرآن

ولعل كثيرًا من طالبي التغيير للأفضل من خلال المنظومة النماذجية للقرآن قد يجدون أثرا مختلفا لهذه النوعية الأخيرة تحديدا

إنها نماذج لشخصيات غير معصومة

أناس هم - على فضلهم - ليسوا بأنبياء ولا مرسلين وهذا يثبت من خلال المواقف العملية أن الأمر ممكن وأن سلوك سبيل الحق يسير على من يسره الله عليه

بعد رؤية ما فعله السحرة عند توبتهم وإسلامهم وكيف ثبتوا وضربوا أعظم مثل في الثبات والقوة في الحق وبعد تأمل موقف مؤمن سورة ياسين الذي وجد لنفسه دورا في الدعوة والحرص على هداية الناس رغم وجود ثلاثة أنبياء في زمانه وعند مطالعة ما صدع به مؤمن آل فرعون مع وجود موسى وهارون عليهما السلام وعند تدبر ثبات امرأة فرعون رغم فساد البيئة التي يحيطها بها زوجها الطاغية وعند مشاهدة صمود أصحاب الكهف رغم المغريات والفتن = لا مجال بعد كل ذلك لتلك الحجج التي يصدرها كل عاجز حين يدعى لامتثال منهج الوحي في حياته

- حجة عدم الاستطاعة

- حجة ضعف النفس

- حجة الافتقار إلى العصمة

باختصار جامع حجة كوننا لسنا أنبياء

كل ذلك توفره وتثبته تلك النماذج والأمثلة القرآنية من غير الأنبياء لتنضم مع نماذج الكمال المطلق في سير النبيين والمرسلين ولتشكل تلك المنظومة الرائعة التي نتحدث عنها

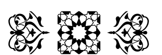
منظومة النماذجية القرآنية والأمثلة الحية التي تعين طالب الحق على الاقتداء والتأسي بعد أن يثبت له عمليا أن تلك القيم القرآنية المبتغاة ممكنة التحقيق وأن ثمة من عاشوا وماتوا عليها

فما الذي يمنعك إذا من أن تقتدي بهم؟!

هكذا ينبغي أن تسأل نفسك في تلك المرحلة المهمة من مراحل الصحبة القرآنية

وأنت تتلو

وتتأسى وتقتدي..



٩. وأن تعقل ..

أي قارئ للقرآن أو متدبر لآياته لابد أن يلفت انتباهه هذا الكم المدهش من الأمثال المحكمة التي سيمر بها أثناء التلاوة!

كمٌّ مُلفت فعلًا من الأمثال القرآنية المحكمة لها ما وراءها قطعًا

في الفصل السابق ذكرنا ما ورد عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه موقوفًا ومرفوعًا أن القرآن نزل هكذا

«إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ آمِرًا، وَزَاجِرًا، وَسُنَّةً خَالِيَةً، وَمَثَلًا مَضْرُوبًا».

أما الأمر والزجر والسنن التي قد خلت من قبلنا؛ فما أوضحهما في القرآن ولا تخفى مواضعهما عن متدبر وتلك السنن الخالية بالذات فصلنا في ذكرها في الفصل المذكور آنفا

دعونا في هذا الفصل نأتي للجزء الثالث من تلك التقسيمة التي أوضحها ابن عم رسول الله ﷺ ولنكمل بها قسما آخر من رحلتنا لإقامة الصحبة مع القرآن

جزء ما يعقله إلا العالمون!

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ما يضربه الله للناس في كتابه ليتفكروا..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

وليتذكروا..

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٢٧].

إن القرآن ليس كتابًا أكاديميًّا ولا ينبغي أن يختزل في مجرد حشو لمعلومات جافة أو إقرار لحقائق جامدة متراصة إلى جوار بعضها البعض بجفاء ومن دون روح

القرآن هو الروح

ولأنه كذلك كانت الأمثال تشكل جانبًا محوريًّا من تلك الروح التي تنبض بالحيوية والوضوح

يكون ذلك من خلال الأمثال الإنسانية عبر عرض لنماذج حية من البشر الذين عاشوا بالفعل وتعرضوا لما يتعرض له البشر من متغيرات وأحداث كما سبق وبيَّنَّا في فصل الاقتداء السابق

ويكون أيضًا عبر الأمثلة المعنوية التي يتم من خلالها إنزال قيمة أو معنى منزلة شيء حقيقي أو حالة مادية مشاهدة وهذا ما نحاول بيانه في هذه السطور

ولا شك أن ثمة اتصال بين هذا الكم الهائل من الأمثال وبين الغاية الكبرى التي يرسخ القرآن العظيم لها

التغير للأفضل

إن للأمثال القرآنية علاقة وثيقة بتلك القيمة والهدف

وفي المرحلة التي نتحدث عنها - أثناء التلاوة - لابد أن يمر القارئ على شيء من أمثال القرآن

والسؤال هنا؛ كيف يتعامل مع تلك الأمثال؟

كيف يعقلها ويتفكر في معانيها؟

ابتداء عليه أن يعي ماهية المثل

إن ضرب المثل هو ببساطة = إبراز المعنى في صورة موجزة لها وقعها في النفس سواءً كانت تشبيهًا أو قولًا مرسلًا

✍ **قال إبراهيم النظام**: يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام

إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية

✍ **ويقول الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المثل تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.

يحدث ذلك التشبيه لإجمال العديد من المعاني والقيم في ألفاظ واضحة موجزة يسهل على متدبر المثل إدراكها عند استحضار المشبه به الذي هو معلوم لديه مسبقًا = من ثم تستقر المعاني بشكل أيسر وتصحح مفاهيم وترسخ قيم وتعدل سلوكيات وأخلاق

ويعقلها العالمون..

إن تأثير الأمثال بلا شك أوقع من الكلام المجرد لأنها تقرب الصورة وتجلب الانتباه وتسخر الوهم للعقل وترفع الحجاب عن القلوب الغافلة وتؤلف المطلوب وتقربه

✍ **يقول الجرجاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه انّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أُبرزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأَصلية إلى صورته كساها أُبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطّباع على أن تُعطيها محبة وشغفًا.

• فإن كان ذمًّا = كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحد.

• وإن كان حجاجًا = كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

• وإن كان افتخارًا = كان شأوه أمدّ، وشرفه أجد ولسانه ألد.

• وإن كان اعتذارًا = كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغَرْب الغضب أفلّ، وفي عُقد العقود أنفث، وحسن الرجوع أبعث.

• وإن كان وعظًا = كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلى الغياية ويُبصّر الغاية، ويبريَ العليل، ويشفي الغليل».

قد لا يلحظ كثيرون ذلك نظرا لأنه ليس الجميع يعقلون تلك الأمثال

ذكر الإمام ابن كثير عن سيدنا عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قال: عَقَلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل

✍ **ثم علق ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الرواية قائلًا:** وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ولكي تصير سطورنا هذه عملية؛ فلنتجول جولة محدودة على بعض تلك الأمثال القرآنية المحورية والتي من خلال

محاولة فهمها ها هنا يتبين للقارئ الكريم بعض سبل تدبرها ثم يبدأ كما نأمل في تأملها ومصاحبتها أثناء التلاوة

لعل من أوضح النماذج على ذلك ما يتضح في المثال القرآني الأشهر للحق والباطل والذي وصف كل منهما من خلال عرض المثل بصفات تصل إلى متدبر المثل مباشرة بمجرد تخيل المشهد الذي يعرضه المثال القرآن

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ [الرعد:١٧].

تكون البداية دومًا بتحديد المشبه والمشبه به

في مثال سورة الرعد الشهير؛ تقرب صورة الحق النافع حين يُشبه بالماء وبالمعادن التي يبتغى بها المتاع ولا يخفى على أحد ما يمثله الماء من نفع وكذلك المتاع

وحين يراد أن يفهم المتلقي أن الحق ثمين وغالٍ نفيس يشبه بتلك المعادن التي تبتغى منها الحلية والزينة

ومن خلال الصورة الحية تصل فكرة أن الحق راسخ ماكث في الأرض

قد يختفى أحيانًا تحت طبقات الباطل المنتفش التي تشبه بالزبد المتراكم الذي مهما ربا وانتفش فهو إلى جفاء

ذلك الزبد على العكس تمامًا من الماء النافع أو المعدن النفيس

إنه زهيد لا قيمة له وإن علا في الأرض وظهر

وهو هش لا قيمة له، وإن كان على السطح وتزين

وهو لا ينفع ولا يفيد ولا ترتجي منه مصلحة عاجلة أو آجلة

وهو زائل مصيره إلى ضياع ومآله الجفاء والاختفاء

وكذلك الباطل وأهله في كل زمان سيذهب كله، وينتهي برمته ثم تتكشف وجوه كانت مختبئة خلف ظلال الزبد مختالةً بانتفاشه الذي يضفي عليه غير حقيقته ويلقي على الأعين بأوهام فتبصر الكبيرَ صغيرًا، والصغيرَ كبيرًا

الزيف يسقط في النهاية والحق يعلو ولا يُعلى عليه وما ينفع الناس يمكث في الأرض بينما الزبد إلى زوال ومهمة الصادق أن يحاول إزاحة طبقات الزبد ليصل إلى الحق

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

هكذا وبأبسط كلمات وأوضح أسلوب يصل المعنى المراد وتتغير التصورات والنظرات ويظهر الفارق بين الحق ونقيضه الباطل

الأمر نفسه يتكرر عند إبراز معنى الإيمان وحقيقة كونه = نورًا

ذلك الأصل الذي هو من أظهر الأصول ومن أوضح الصور التي يرسخ القرآن لها ويغرس حقيقتها في النفوس

الوحي هو الضياء الذي يكشف للإنسان دربه ويبين له معالم طريقه

ويتضح ذلك أيضًا من خلال العديد من الأمثال

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [الأنعام:١٠٤].

إنها أمثلة متنوعة تجتمع كلها لتشير إلى أنوار كاشفة تضيء للإنسان عتمة الطريق وتبين له سبيل الهدى الرشاد

منبع البصر ومحل الرؤية الصحيحة الواضحة التي تنتشل المؤمن من الضد

من الظُلمات..

تلك التي تكون من دون ذلك النور الذي يستضيء به الإنسان وهذه البصائر التي يهتدي بها

سيتخبط المرء لا محالة في عتمة كالحة وظلام دامس

وهذا هو الأصل المكمل والصورة المقابلة التي ضرب لها أمثال أخرى

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴾ [الأنعام:١٢٢]

إنها المقابلة الحاسمة بين حي يسير في الضياء ويمضي بنور من الله وآخر ميت خاوي النفس منزوع الروح حبيس بين أمواج ظلمات كالحة

﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠].

مثال آخر للظلمات:

- ظلمات الشك والنفور
- ظلمات الهوى والاستسلام لقيود الشهوة
- ظلمات الفجور والعصيان
- ظلمات الشرك والجحود والنكران

لكن المقابلة ليست دومًا بهذا التمايز ولا يشترط أن تكون بهذا الشكل الواضح من المفاصلة

ثمة أقوام يتذبذبون بين المنطقتين

أقوام يستضيئون بنور الوحي لوهلة حتى يكاد أن ينير حياتهم ويستبينون به طريقهم ثم لا يلبث إلا أن يخفت من جديد في نفوسهم ويختاروا إكمال الطريق من دونه

يختاروا الظلام ويفضلوا العتمة

إنهم المنافقون ومن شابههم واختار خياراتهم

خيارات التبديل والتفريط بعد معرفة الحق

ولهؤلاء أمثلة أخرى من خلال فهمها يزداد النفور من سبيلهم ويدرك الإنسان خطورة مآلهم

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧، ١٨].

هذا المثال القرآني من سورة البقرة في مستهل الحديث عن المنافقين في القرآن يعد من أخطر الأمثال القرآنية على الإطلاق

إنه يبين حالة من حالات الاختلاط التي قد يتعرض إليها الإنسان في سيره إلى الله

يبين أن من المنافقين صنفًا لم يخل واقعه من ومضات نور ولحظات رؤية

لم يكن الظلام من البداية = أمرًا واقعًا لا مناص عنه ولا فكاك منه

ولم يكن العمى هو الخيار الأوحد

لقد مرت بهم يوما لحظة ضياء ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ﴾ [البقرة:١٧].

ولعل منهم من استوقد ما ولَّد هذا الضياء

قد يكون ذلك بمجيئهم إلى حامل الوحي ابتداء وسماعهم منه

وقد يكون بنطق للشهادتين ولزوم المؤمنين وشهود صلاتهم التي لم يك يتركها إلا معلوم نفاق

وقد يكون ببدايات قبول لذلك المصباح المبهر الذي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار

قد يكون كل ذلك أو شيء منه

المهم أن ثمة ضياء أحاط بهم لوهلة

لكنه لم يستمر

لقد ذهب النور وعادت الظلمات

﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾ [البقرة:١٧].

ومعها جاء العمى

وأتى معه الصمم

﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨].

كل ذلك التفصيل وكل تلك المعاني الدقيقة يتبين من هذه الكلمات اليسيرة

كلمات المثال القرآني :

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩].

إنه المثل المكمل للأول

المثل المائي..

الخير النازل إليهم من السماء وما فيه من وعد ووعيد وترغيب وترهيب

ها هم يرفضونه

يتجنبونه

يضعون الأصابع في الآذان كي لا تسمع شيئا من ذلك كله

لكنهم مع ذلك لم يزالوا على تلك الحال المذبذبة المترددة

إن نور الوحي مبهر وضياؤه يجذب كل بصر

ولم تكن أبصارهم استثناء

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [البقرة:٢٠]

حينها مشوا وسلكوا مع من سلك

﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢٠].

لكن ما إن تسنح لهم الفرصة وتبدر لحظة خفوت في نفوسهم = يتسللون وينصرفون

﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٠].

إنها مثال يصور بدقة تلك الحالة المخلطة حين يشبهها بهذا المشهد الواقعي المعلوم

مشهد التذبذب ..

إنها حالة المنافق المتردد المتذبذب

حالة من ذاق وعرف لكنه لم يغترف

من اختار الظلمات وعاين حسرتها في الدنيا قبل الآخرة حين اتخذ هذا القرار المؤلم والاختيار الرهيب

اختيار النفاق

❁ الخُشُبٌ المُسَنَّدَةٌ

وذلك هو المثال الأجمع الذي اختاره ربنا سبحانه وتعالى ليلخص حال المنافقين وموقعهم من سائر المؤمنين

إن كلمة خشب بمفردها ولأول وهلة تلقي في النفس انطباعات تلقائية

- القسوة
- الخشونة..
- الغلظة
- التيبس

كل هذه الانطباعات توقعها في النفس هذا المثل الموجز

ذلك لأن الخشب هو ببساطة ما استطال وغلظ من العيدان والأغصان

حينئذ يقال له خشب

إنه إذًا مجرد جماد يابس

لم يقل الله هذا السياق شجرا أو حتى غصن أو غيرها من الألفاظ التي قد توحي ببعض الحيوية

بل وقع الاختيار على الخشب اليابس المُنْبَت عن أصله الفاقد لكل معاني النضارة والحيوية فلا جذر ممتد يُروى ويسقى ويمده بأسباب الحياة ولا مدد سماوي يرطبه ويهون من قسوته

والخشب مهما ضخم واستطال حجمه فإنه يظل خاليا من الحياة مفتقرا إلى الإدراك فاقدا للتأثر بما حوله من المتغيرات والأحداث

وكذلك المنافق..

جسد خاوٍ وإن عظم بنيانه

قاسي القلب متبلد المشاعر قاصر الإدراك فظ الطباع

كتلك الألواح الخشبية التي تبدو غلظتها وضخامتها من بعيد

لكنها مع تلك الضخامة ومع ما قد يكون ظاهرا من الفخامة التي تبدو للعيان وتثير إعجابهم كما أسلفنا = فإن ذلك كله لا يجعل لها أي قيمة أو نفع

الأصل أن الخشب يستعمل في أمر نافع وإن غيره من الأشياء ليستند إليه ويستقوي به ويتخذه دعمًا..

أن يكون الخشب داعمًا لجدار أو مقيما لسقف أو عمودا لخيمة أو بناء أو أن يستعمل كقطعة أثاث نافعة = فإن هذا هو الطبيعي والمتوقع..

لكن من الخشب ما هو رديء نخر ضعيف البنية لا يمكن الاعتماد عليه ولا الاستقواء به أو حتى الانتفاع به

مثل هذا يلقى بإهمال وعدم اكتراث مستندا إلى جدار أو إلى حائط

إنه لا يقوم بذاته فضلًا على أن يقيم غيره

وكذلك المنافقين

﴿ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون:٤]

كيانات عديمة القدر أينما توجهها أو تستعملها لا تأت بخير

كيانات فقدت دورها وأهميتها كما فقدت المشاعر الطبيعية

❁ مُسَنَّدَةٌ

حتى بناء الكلمة جاء للمجهول ليفهم منه أن هناك من أسندهم

هناك من يوجههم ويحركهم ويتحكم في مواقعهم

دومًا هم بحاجة إلى من يستندون إليه ويكتسبون منه قيامهم ومكانتهم

قد يستندون لجدار الكذب والتدليس ولحن القول

وقد يعتمدون على منصب أو جاه يدعمهم ويقويهم

وقد تسندهم الخيانة والغدر والتآمر الذي لا يجيدون شيئا مثله

وقد يساندهم أولياؤهم وشياطينهم من الإنس الذين كلما خلوا إليها قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون

المهم أن يبحثوا لهم عن سند مهما كان بطلانه أو عداوته للمؤمنين

وقد قيل أن الاستناد إلى جدار أو نحوه يطابق وصف مجلسهم عند رسول الله ﷺ

إن علوهم واستكبارهم كان يحول بينهم وبين الاجتماع والالتفاف حول رسول الله ﷺ مع المؤمنين المحبين الحريصين على القرب منه والدنو من مجلسه

إنهم يرون أنهم أرقى وأعظم شأنًا من ثني الركب والتواضع لمعلم الناس الخير والهادي إلى صراط مستقيم

لذا فهم يجلسون متكئين مستريحين بعيدا عن مجلسه مجتمعين على لمزهم واستهزائهم بالمؤمنين إلى جدرهم مسندين

فلا تعجبك أجسامهم ولا تفتنك صورهم مهما تزينت وتجملت فهم في النهاية = مجرد خُشُب..

تأمل كم التفاصيل الدقيقة التي يمكن استخلاصها من هذا المثل على قصره

وتأمل أثر ذلك على القلب إن عقل المثل واستوعبه

لا شك أن قدرا لا بأس به من الاستبشاع سينمو في ذلك القلب

وهذا من أهم مقاصد الأمثلة القرآنية

أن تستبشع الباطل وتخشى مصير استسلامك له

يتضح ذلك أكثر بتأمل مثال الكلب اللاهث

إن عالما أوتي آيات الله ابتداءً فصار مثله ككلب يلهث انتهاءً!!

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

إنه مثال المنتكس

واحد من أخطر التشبيهات والأمثلة القرآنية وأهمها

لكن لماذا الكلب تحديدا؟!

هل لأن حاله إزاء الشهوات ولهاثه الدائم وراءها بعد أن استسلم لها وأخلد لسحرها أول مرة = يشبه حال الكلب اللهاث دائما وراء شهواته المجترح دوما لملذاته الذليل لغرائزه ومرجواته؟!

أم أن مشهد ذلك المنتكس بعد الانتكاس يطابق في عنته وعدم ارتياحه مشهد اللهاث الدائم الذي لا ينقطع مع كل حال سواء كان الكلب جائعا أو شبعان، مرتويا أو عطشان، مزجورًا أو متركوا

دائمًا يلهث..

لا يرتاح من اللهاث أبدا ولا تجده هادئا ساكنا كسائر الحيوانات التي لا تلهث إلا إن جاعت أو سعت مسرعة لشيء أو فرت من شيء

أما الكلب وشبيهه المنتكس فلا سكن ولا هناء

ولا ارتياح..

كل ذلك وأكثر حمله ذلك التشبيه الموجز والمثل الجامع

مثل الكلب..

يشبهه أيضًا ويقترب من مقصوده ذلك المثال القرآني البديع عن تلك المرأة الحمقاء التي كلما غزلت ثوبًا نقضته كأن لم يكن: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ [النحل:٩٢]

إنه نموذج صارخ لحماقة مدهشة لا تختلف كثيرًا عن حماقة الكلب اللاهث الذي انسلخ عن آيات الله

ما أشد حماقة تلك المرأة وما أقل حيلتها وما أهونها على نفسها وهي تدكر ما تبقى لها وتبدد رأس مالها وتضيع تعبها دون سبب مفهوم إلا سوء فهم جعلها تفقد أمل الإصلاح والتغيير فاختارت تدمير نفسها وإحباط أعمالها بيدها لا بأيدي غيرهم

والبعض يتعامل مع الحياة بنفس المنطق المعوج والتفكير الأحمق وكأنما ينبغي إذا لم يدرك كل الشيء أن يترك جله أو حتى ما تبقى له وقد سيطرت عليهم قاعدة إما الكمال وإلا فلا

يتعاملون بهذا المنطق على مختلف الأصعدة

فإذا عصوا الله معصية تمادوا في عصيانه ولسان حالهم: لم يعد هناك فارق

وإذا قصروا في طاعة تركوها وباقي الطاعات وكأنما قد سد باب الإصلاح بنفس حجة: لم يعد هناك فارق

وإذا فشلوا في تحقيق هدف قعدوا وأحبطوا وكأن الحياة قد انتهت ولم يعد لوجودهم معنى أو غاية لأنه لم يعد هناك فارق!

وهكذا دواليك

تتعجب لاختيارهم

تذكر حينئذ المثل وبطلته الحمقاء وستفهم

ستدرك كم السفه الذي تحويه تلك التصرفات الصبيانية وستستوعب ضرورة المحافظة على الرصيد المتبقي حتى وإن حدثت خسارة

ومن ثم لن تنقض..

لن تنقض غزلك

أرأيت كيف يغيرك المثل؟

كيف يؤثر في فهمك وتصوراتك

۞ انظر أيضًا إلى أثر أمثلة القرآن على الأخلاق أو السلوك وتغييرها

الغيبة مثلاً..

تلك الفاكهة المحرمة والشهوة الملعونة

نعم هي شهوة ولا ريب

ولتلك الشهوة لذة تقارب لذة الطعام الشهي والتمتع باللحم الطيب

إنها لذة تغلف حقيقة هذا الطعام الفاسد وتحول بين المرء وبين إدراك مدى سوئه وضرورة التقزز والاشمئزاز من مجرد تذوقه فلا يلحظ أثناء تناوله أنه ينهش لحمًا ميتًا

هذا هو التشبيه الذي اختاره الله لنهش الأعراض

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات:١٢].

بالطبع لا أحد يحب ذلك

لا يوجد شخص طبيعي يحمل شهوة الغيلان الأسطورية التي تتغذى على لحوم البشر

إن كان ذلك فلماذا لا تتحقق تلك النتيجة الطبيعية التي تلت هذا المثال القرآني؟

لماذا لا تتحقق ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾.

ببساطة لعدم استيعاب مفردات المثل القرآني ومآلاته

نحب الغيبة ونشتهيها ويصدق على كثير منا وصف الناس لها بأنها = فاكهة المجالس

والسر في تلك اللذة التي يكشف المثل حقيقتها

اللذة التي تنتابك حين تعين نفسك حكمًا على غيرك وتقرر أن تطلق الأحكام على هذا وذاك..

لذة العُلُو وتعاظم النفس

هم عاصون = إذًا فأنا الطائع

هم مبطلون = فأنا المحق

هم ناقصون = فأنا المكتمل

شعور ممتع هو... أليس كذلك؟!

المشكلة أنه مورث للإدمان

تمامًا كمن أدمن طعامًا أو شرابًا لكنه هاهنا

مدمن ميتة

ميتة أخيه

لا أظن أن من عقل هذا المثل حقًّا وتشربه قلبه صدقًا سيتساهل في أمر الغيبة وإن اقترفها استثناء فأعتقد أنه بمجرد تذكره وإفاقته من سكرته سيسعى لتقيؤ ما التهم

ببساطة لإدراكه الحقيقة

حقيقة الميتة..

إنه نموذج واضح للمثال التنفيري الترهيبي القائم على التقبيح

وفي القرآن أيضًا أمثلة أخرى من النوع نفسه كما ضرب الله مثلًا لحالِ المنفق رِياءً، حيثُ لا يَحْصُل من إنفاقه على شيءٍ من الثواب، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ [البقرة:٢٦٤]

فقد مثَّل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصيبُه مطرٌ غزير، فيذهبُ بِما عليه من تراب، فأعمال المُرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنَّها تذهب هباء، ولا يجد لها ثوابًا

ها هنا تنفير واضح من خلال تقرير خيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون.

في المقابل قد يُضرب المثل للترغيب في الممثل، حيثُ يكون الممثل به مِمَّا تستَحْسِنُه النفوس وترغب فيه، كما يضرب الله مثلًا لحال المُنْفِق في سبيل الله، حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير

فليتحدث المتحدثون عن المضاعفة وعظم الثواب وليسودوا المطولات ولن يبلغوا مهما فعلو تأثير تلك الكلمات اليسيرة التي تستدعي للأذهان تلك الصورة البسيطة التي تلخص كل شيء

حبة واحدة تتحول إلى سنبلة تحوي مئات الحبات..

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة:٢٦١]

هكذا تتضح الصورة التي لا تغيب عن ذهب واعٍ

ثم يأتي بعدها تقرير الحقيقة الشرعية وقد تمت قبلها التوطئة الفكرية من خلال المثل

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١]

يضرب المثل في القرآن أيضًا لمقصد المدح وتقرير حقيقة الثناء على شخص أو فئة، حيث يكون في الممثل به صفات تستحسنها النفوس، وتمدح من يحرز مثلها

نموذج ذلك ما ضربه الله مثلًا لحال الصحابة رضي الله عنهم فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح:٢٩]

فالزرع يخرج شطأه، وهو ما تفرع في شاطئيه أي جوانبه، ثم يقوى ويستغلظ أي يصير بعد الدِّقَّة غليظًا وكذلك حال الصحابة؛ فإنَّهم كانوا في بدء الأمر قليلًا ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم وامتلأت القلوب إعجابًا بعظمتهم.

في المقابل أيضًا يضرب المثل للذَّمِّ، حيث يكون لشخص أو فئة صفة أو صفات يستقبحها الناس ويذمون من رضي لنفسه بمثلها كما ضرب الله مثلًا لحال اليهود من عدم الانتفاع بما في كتبهم من علم حيث مثلهم الله بالحمار الذي مهما يحمل من أنفس الكتب وأعظم الأسفار = فلن ينتفع بها

وهكذا تنتقل الأمثال بالمتدبر من قيمة إلى أخرى ومن معنى يتضح إلى معتقد يترسخ ومن خلق يرغب فيه إلى نقيصة يحذر منها وكل ذلك من خلال استدعاء المواقف المألوفة والمخلوقات المعروفة التي بظهورها في المشهد بأيسر لفظ وأجذل عبارة = يتم المعنى ويتضح المقصود

ويعقلها العالمون المتدبرون!

الذي تمر عليهم الأمثال أثناء تلاوتهم فيتفكرون ويتذكرون..



١٠. أن تُسَلِّم

من أكثر ما يعينك على الانتفاع بالقرآن أن تقرر قرارًا بين يدي التلاوة ثم تنتقل بهذا القرار إلى المرحلة التي تليها

مرحلة «أثناء التلاوة»

هذا القرار هو ببساطة قرار الاستسلام الطوعي

بشكل مبسط = تسلم نفسك للقرآن

دون قيد أو شرط

دون خطوط حمراء

ودون حرج

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:٢].

ها هي واضحة محكمة

﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾

ألست تؤمن أنه حق؟

ألا تقر أنه ما جاء إلا بالصدق؟

ألا تعترف أنه من عند الله؟

ألا تشهد أنه النور والبيان والتبيان لكل شيء؟

ألست تعلم أنه يهدي للتي هي أقوم؟

فمن أين يأتي الحرج إذا؟!

وكيف لمن يؤمن بكل ما سبق أن يستثني أو يشترط أو ينتقي؟

إن الحرج من اختيار الشرع والضيق والعنت الذي يجده البعض عند مخالفة الشرع لأهوائهم والرفض لحكم من أحكام القرآن أو أمر من أوامره رغم إدراك ثبوته أمام عينيه وهو يتلو = أعراض لخلل عميق من أخطر ما يمكن أن يجده المرء في قلبه

خلل في الاستسلام الطوعي

القبول

أن يدرك أو يوقن بدليل واضح وقاطع أن هذا الأمر دين أو شرع قُضي بحكمه لكنه لا يجد في قلبه قبولا له أو أن يضيق بذلك الوجود ويتحرج من كونه من الدين أصلًا

لا أتحدث هنا عن ضعف يوهن الانقياد أو غفلة تقلل الطاعة أو نسيان يعكر صفو الاتباع لكن عن الأصل أتحدث..

عن القبول والتسليم وإن لم أستطع التنفيذ

هذا القبول إن لم يوجد مع وجود القناعة بثبوت الأمر = كارثة إيمانية

نعم... الأمر متصل مباشرة بالإيمان

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:٢].

تأمل المشترك بين هذه الآيات التي تتحدث عن قبول الشرع وقضاء الله ورسوله دون رفض أو حرج

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة:١٠٠]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٢].

إنه لفظ الإيمان بمشتقاته

القضية هاهنا إذًا إيمان وشرط من شروطه

لكن ما الصلة؟

ما علاقة الإيمان بالقبول..

الحق أن العلاقة وطيدة للغاية

علاقة تصديق بربوبية المولى جل وعلا وتسليم بألوهيته وحقه في التشريع والأمر والنهي

علاقة ثقة ويقين أنه يعلم من خلق وأنه وحده الخبير بما يصلحهم بإطلاق

المؤمن يصدق بذلك ويوقن به

لذلك فهو يقبل شرعه ولا يعتري قلبه الحرج أبدًا من شيء قضاه الله وتكلم به

ببساطة لأنه هو سبحانه من قضاه وحكم به

وهو الأحق

وهو الأعلم

وهو الأرحم

أفينازعه العبد في علمه ليتحرج ويكون له قول بعد قوله؟

أم ينازعه في حقه ومقتضى استحقاقه الحصري للعبادة والطاعة المطلقة؟

أم هو يشكك في رحمته ومودته وإرادته الخير بعباده في دنياهم ودينهم وفي أخراهم ومعادهم؟

هذه للأسف مقتضيات الحرج من الشرع بعد ثبوته ووصول العلم به

وتلك هي الصلة بالإيمان الذي يخالف معناه كل تلك المقتضيات تمام المخالفة

مؤمن = مصدق بأحقية المولى في التشريع وكماله ونفعه

وتصديقه يقتضي القبول التام غير المشتمل على أي استثناء أو قيد أو شرط

ثم يأتي الانقياد والتنفيذ بعد ذلك

لكن البداية تكون بوجود ذلك القبول قابعا هنالك بين جنبات الصرح الحاكم على الجوارح كلها

القلب..

قلب يتلو صاحبه كلام ربه الذي يوقن بأنه يعلم من خلق وما خلق وأنه أعلم به من نفسه

ففيما الاستثناء؟!

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ [البقرة:٨٥].

هكذا سُئل من فعلوا

من تناقضوا بدعوى إيمان جمعوا بينها وبين انتقائية وعصيان

من نسوا حظا مما ذُكِّروا به ولم يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ولم يدخلوا في السلم كآفة بل قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل وتمردوا وتفلتوا

وللأسف هذا هو الخيار البديل والقرار المقابل لذلك الذي أحدثك عنه

نعم.. إن لم تستسلم فهو التمرد إذًا!

العصيان..

الرفض

تلك كانت الجريمة الأظهر والأخطر التي ارتكب بنو إسرائيل في حق ربهم

دائمًا ما كنت أتعجب من نموذج التمرد المستمر، والعصيان الدائم الذى ضربه الله في كتابه ببنى إسرائيل والذي أكثر من بيان تفاصيله ومواقفه

قوم أجرى الله لهم كل ما نعرفه من نعم وخوارق وآيات وأخذ عليهم العهود والمواثيق مرارًا، فلم يمنعهم كل ذلك أن يعلنوا تمردهم صريحًا فجا بقولهم الفاصل:

﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة:٩٣].

ومتى قالوه

مباشرة بعد معجزة رفع جبل الطور فوقهم كأنه ظلة وأخذ الميثاق عليهم

ميثاق بسيط لكنه على بساطته حازم حاسم

خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا..

اسمعوا أوامره وأطيعوا وامتثلوا

سمعنا وعصينا

هكذا بكل وضوح ودون مواربة

التمرد على الله والتعالي على شرعته في أوضح الصور وأفحش النماذج

القضية إذن ليست في مجرد العصيان فمن ذا معصوم بعد الأنبياء؟!

الكل يعصي ويزل ويخطئ

الفكرة في العصيان كقرار

كعقيدة أو كأسلوب حياة

سمعنا..

إقرار بالسماع وببلوغ العلم آذانهم

لكن لن يجاوز الآذان

لن يصل إلى القلب أو تمارسه الجوارح

وليس هذا عن تقصير يُرجى جبره أو غفلة يأمل المرء زوالها أو ضعف يُمني الإنسان نفسه أن يقوى يومًا

بل هو عصيان مقصود وتمرد ممنهج وعن سبق الإصرار وسالف الترصد

ولعل أشد الأمثلة فضحًا لذلك التمرد في قصة بنى إسرائيل؛ هو موقف البقرة

ذلك الموقف الذى بدأ بأمر يسير للغاية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧].

هكذا أطلق اللفظ بتنكيره الذى يفيد العموم؛

مجرد بقرة؛

أي بقرة!

مسألة بسيطة، واضحة، تخلو من التكلف، ومصدرها معلوم موثوق لا يوجد أدنى شك في مصداقيته ولا تعرف تهمة تقدح في عدالته أو تطعن على نزاهته

إنه نبيهم الذى رأوا على يديه آيات ومعجزات للأسف لم تشفع له لديهم حين أمرهم بذبح بقرة!

بل الحقيقة أنه ليس هو من أمرهم، هو فقط أبلغهم أمر ربهم

فكان رد الفعل السريع والفج حين قابلوا دعوته، وبلاغه بسوء ظن واتهام تجلى في قولهم: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة:٦٧]!

نعلم جميعًا ماذا حدث بعد ذلك؛ وكيف أنهم تكلفوا، وتنطعوا، وافتعلوا تشابها وهميا. فتارة يطلبون بيانها، وتارة يسألون عن لونها، ثم عن وصفها، وفى كل مرة كانت تأتى الإجابة مصدَّرة بالجملة البسيطة الواضحة تسبق الوصف الذى عنه يستفهمون..

﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ [البقرة:٦٨].

جملة متكررة بسيطة واضحة فيها التأكيد على أمرين؛ الأول = ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ ﴾ [البقرة:٦٨].

إن الآمر هنا هو الله ومصدر التلقي هاهنا هو النص الإلهي

الأمر الثاني = أنها مجرد بقرة

أي بقرة.

فافعلوا ما تؤمرون..

هذا هو المقصد الأسمى لجل التشريعات

افعل ما تؤمر

امتثل

استسلم

كن عبدًا..

والمشكلة أنهم يدركون ذلك

ثم يصرون على ضده ونقيضه

لقد أصروا على افتعال اختلاف متكلف، وشددوا فشدَّد الله عليهم، وظهر ذلك جليا في قولهم ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ﴾.

الحقيقة أنه لم يتشابه؛ لكن العلة الحقيقية كانت في غياب إرادة الامتثال

في غياب العبودية والاستسلام الطوعي لله

في الاعتراف الداخلي أن هناك ملك وهناك عبد وأن للملك أن يأمر عبده وعلى العبد الطاعة

إن افتراض الاختلاف، واشتباه الأمر؛ لا يدعو أي عاقل إلي ترك الفعل نفسه، ولكن العبرة بالرغبة في التنفيذ التي إن وجدت فإن الأمور بعد ذلك تكون يسيرة

يسيرة إلا على القلوب القاسية كالحجارة، أو أشد قسوة.

ولقد تبينت الحقيقة بعد ذلك وظهر أن العلة هي غياب إرادة الطاعة والامتثال وذلك في قول الله الجامع الذي أظهر من خلاله خلاصة الأمر وأصله وجذوره

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة:٧١].

وما كادوا يفعلون

هاهنا مربط الفرس،

ومكمن المشكلة، وموطن الداء،

إن الخلل الحقيقي إنما هو في مدى إسلامهم لله جل وعلا،

في مستوى استسلامهم لأمره

في درجة امتثالهم لمراده

﴿ وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة:٧١].

هي جملة جامعة مانعة، تُعبر عن مجمل خصالهم، ومختصر نعوتهم،

الحقيقة الجلية في كونهم يرفضون حكم الله عليهم، ويجدون حرجًا في صدورهم من سلطانه، وضعفًا في اليقين بموعوده، فهم للأسف قوم متمردون،

عن أمر ربهم ناشزون

أما أنت... فلست منهم

وما ينبغي لك

قرر إذًا بين يدي تلاوتك ورغبتك في الانتفاع بما سترتل وتتدبر

مستسلم أنا، متقبل لكل ما ستأمرني به يا ربي

خاضع أنا ومقر بأنه الحق وأن ليس بعد الحق إلا الضلال

سلمت نفسي لما في كتابك كآفّة؛ راجيًا الاتباع والامتثال

وإن غفلت أو ضعفت عن شيء منه فليس لجحود أو عصيان

لكنه الزلل والتقصير الذي أرجو زواله وأبرأ منه وأبتغي توبة عنه

بهذا الإقرار وبذلك التسليم = أقبل على القرآن

وبإذن الله ستجد أثرًا مختلفًا على واقعك وعملك وانتفاعك



١١. أن تُصدِّق

في الفصل الأخير من تلك الرواية وحين تمكن المرض العضال من البطل وقال كلمات الوداع لمن حوله بينما يلفظ أنفاسه الأخيرة وجدت أنني لا أستطيع إكمال القراءة بشكل صحيح

الحروف تختلط والكلمات تهتز

ماذا يحدث؟!

أحقًّا حدث ذلك مرة أخرى؟

هل اندمجت في أحداث الرواية لدرجة أن حجبت الدموع الرؤية عن عيني؟

نعم.. هذا ما حدث

ويحدث كثيرًا وأعتقد أنه قد وقع لك مرة أو أكثر عزيزي القارئ

الكثيرون حين يندمجون تمام الاندماج مع فيلم أو رواية =

يبلغ بهم التأثر إلى أن يذرفوا الدمع وتختلج القلوب وترق الأفئدة وربنا تغير مزاجهم بالكلية باقي ساعات اليوم

بل ربما امتد التأثر لأيام

يحدث ذلك رغم علمهم اليقيني أن ما يشاهدون أو يقرأون ليس حقيقيًّا بل هو مجرد تمثيل أو تأليف!

هذا وقع ببساطة لأنهم تناسوا ولو للحظات تلك الحقيقة واندمجوا... وصدقوا!

إنه ما يسمى بالتعطيل الإرادي لعدم التصديق

عبارة التي ابتكرها الشاعر والناقد الإنجليزي صامويل تايلر كولريدج في أوائل القرن الميلادي التاسع عشر

عبارة تلخص المشهد الذي وقعت فيه ويقع فيه غيري باستمرار

كي تستمتع بقصة أو رواية فإن ذلك العقد الخفي يتم توقيعه بينك وبين الكاتب توافق في طياته على تناسي حقيقة أن المكتوب أو المرئي شيء منتحل ليس بحقيقي ومن ثم تصدق وتتأثر

في المسرح يكون الأمر أصعب قليلًا لأن المشاهد يرى أناسا مثله يعرف أنهم ليسوا من يدعون ولذلك ينشأ ما يسمى بالحائط الرابع الذي يقف بين المشاهد وبين الممثلين ليتناسى حقيقة ما يحدث ويصدق

ثم يتأثر

لكن ماذا لو كان ما يحدث حقيقيًّا؟

ماذا لو كانت القصة وقعت بالفعل والخبر حقيقي والأحداث واقعية ولا تحتاج لذلك التعطيل الإرادي أو الحائط الرابع أو العقد الخفي

ماذا لو كان ما تقرأ هو الحق فعلًا

هذا ببساطة ما ينبغي أن يحدث حين تقرأ القرآن

أن تُصَدِّق

أن تقرأ القرآن وأنت موقن تمام اليقين أنه الحق وأن كل وعد ووعيد وخبر وقصة = الحق الكامل والصواب المطلق

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦٢].

إذا قرأت القرآن وذلك التصور يخيم على نفسك = كانت النتيجة مختلفة تماما والتأثر في منطقة أخرى أما عن التفاعل؛ فحدث ولا حرج

كل ذلك بشرط أن تقرأ وأنت مصدق موقن أن هذا هو الحق الذي أنزله الحق ذاته جَلَّجَلَالُهُ

لقد ورد اسم الله «الحق» عشر مرات في كتاب الله

ووردت الكلمة نفسها مائتين وسبع وثمانين مرة

والحق لغة: هو ما تيقنت منه يقينًا دامغًا وصار لديك صوابًا دامغًا لا شك فيه

✍ **قال الخطابي**: المتحقق كونه ووجوده فكل ما صح وجوده فهو الحق

الحليمي هو ما لا يسع إنكاره

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩]

والله جَلَّجَلَالُهُ هو الذي أنزل هذا الكتاب بالحق

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٠٥]

وهو سبحانه يقص الحق

وهو يهدي إلى الحق

وهو يقذف بالحق على الباطل فيدمغه

وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق

وقوله الحق، ووعده الحق، ولقاؤه حق، والساعة حق

وهو الذي أرسل النبيين بالحق ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر:٢٤].

هذا اليقين بالحق هو الذين يهون به الله على المرء مصائب الحياة ويعينه على تقلبات الأحداث ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق دون استعجال الثمرة أو التململ أثناء طريقها

وهل تململ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

تخيل

ألف سنة إلا خمسين عامًا يتعرض للسخرية والإهانة والتكذيب ومع ذلك يكمل

لماذا؟

لأنه يصدِّق

وغيره من الأنبياء كذلك صدَّقوا

إن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه إلا رجل ورجلين ومنهم من يأتي ليس معه أحد

ومع ذلك التصديق ظل كما هو واليقين ثابت كما هو..

اليقين أنه الحق هو الذي يعينك على كل عمل من أعمال الدين يأمرك به القرآن لأنك تثق أن هناك ثمرة إن لم تدركها في الدنيا فسيدركها غيرك وستدرك أنت ثمرة الأخرى

ومن هنا إن قامت القيامة وفي يدك فسيلة فستغرسها

لن ترى ثمرتها

ولكنك ستغرسها لأنك مصدق

مصدق أن الخبر حق وأن الوعد حق وأنه جَلَّجَلَالُهُ لا يخلف وعده

لأجل ذلك نرى كما هائلًا من الآيات التي تدعوك مباشرة لهذا

لأن تُصدق

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٩٥].

هكذا أمر بشكل واضح وصريح

قل: ﴿ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٩٥].

تقولها وتصدق بها

تصدِّق بالحسنى

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧].

ويتكرر الأمر بالتصديق والمقابلة بين من فعل ومن لم يفعل

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٣٢].

في المقابل

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣].

دائمًا يتكرر الثناء على المصدقين

بل ويُقسم ربنا جَلَّجَلَالُهُ على بعض ما قد لا يصدقه أناس كما ينبغي

لذلك لا يمكن لقارئ القرآن ألا يلاحظ هذا الكم الواضح من القَسَم

- **فتارة يقسم سبحانه بمخلوقاته السماوية**، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم:١] وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس:١، ٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج:١]

- **وتارة يقسم بمخلوقاته الأرضية**

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين:١، ٢]

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس:٣، ٤]

- **وتارة يقسم سبحانه بكتابه الكريم**

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يس:٢]

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص:١]

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق:١]

- **بل ويقسم ربنا في كتابه بنبيه ﷺ**

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢]

- **وفي سورة الذاريات فيستفتح الله بالقَسَم** وتملئ آياتها بصنوف المخلوقات التي أقسم الله بها

أقسم ربنا بالريح «الذاريات» وبالسحب «الحاملات» وبالسفن «الجاريات» وبالملائكة «المقسمات» وبالسماء ذات الحُبُك

يقسم ربنا بما يشاء من خلقه ليؤكد حقائق راسخة تعرضها السورة ويراد لمتدبرها أن يوقن بها

صدق الوعد ووقوع الدين ومشاهد من الدار الآخرة ومصير الخراصين المكذبين وجنات المتقين

كل ذلك يأتي في مفتتح السورة مع ما أقسم به الله من خلقه

لكن عند ذكر الرزق أتى القسم مختلفًا

أقسم ربنا بنفسه

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢]

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ [الذاريات:٢٣]

✍ **قال الحسن**: بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَاتَلَ اللهُ تَعَالَى أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوهُ**»

ويروى أن أعرابيًّا فُجع بذلك القسم حين سمعه لأول مرة وتساءلًا مصدومًا عن أولئك الذين بلغت بهم قلة التصديق مبلغًا يقسم الله لهم معه بذاته ليصدقوه

على قول الطبري وغيره أن ذلك القسم خاص بالآية التي قبله وما حوته من تقرير بأن رزقنا في السماء

فلماذا الرزق؟

لماذا هذا الاعتناء بالقسم الخاص بإثبات كونه في السماء وأنه بيد من رفعها سبحانه؟

الحقيقة أن جل الناس وإن أقروا بهذا الأمر نظريا إلا أنهم إقرارهم العملي لا يدانيه

القلق الزائد على الرزق والانشغال المبالغ فيه بطلبه بأي سبيل حل أم حرم والشح به إن جاء والخوف على نقصانه أو ذهابه = كل ذلك يلزمه مثل هذا القسم

لا ليقعدهم عن العمل أن السير في مناكب الأرض ليأكلوا من رزقه كما أمرهم

لكن ليهونوا على أنفسهم ولتطمئن قلوب مزقتها المخاوف والرغبات

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات:٢٣]

هكذا أراد ربك أن يكون يقينك في كلامه

كيقينك في كونك تنطق!

وعلى ذلك أقسم بذاته العلية

لهذا تظل أعظم أنواع القسم في القرآن القسم بذات الله

يتكرر ذلك النوع من القسم مع أعاظم الأمور

﴿ ۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس:٥٣].

تأمل على ماذا أقسم

أن هذا الذي بين أيديكم هو الحق

- **أيضًا أقسم بذاته** على نفي تمام الإيمان عمن لم يتحاكموا لرسوله حين نزاعهم

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥]

- **وأقسم بذاته عن وقوع السؤال للجميع يوم القيامة**

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٩٢]

- **وكذا أقسم عند ذكر الحشر**

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ﴾ [مريم:٦٨]

- وأيضًا عند الحديث عن مجيء الساعة والبعث

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ:٣]

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن:٧]

والغرض الأساسي من القَسَم = التأكيد على الأخبار التي وردت فيها تلك الأقسام

أو هو ببساطة ما نتحدث عنه منذ بداية هذا الفصل

أن تُصدِّق

فإن حدث ذلك التصديق كان التفاعل المقابل من نوع آخر

«هل لكَ في صاحبكَ؟ يُخبرُ أنه أتى في ليلتهِ هذهِ مسيرةُ شهرٍ، ثم رجعَ في ليلتهِ!»

هكذا جاء المشركون إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه يحاولون تشكيكه وخلخلة ذلك التصديق الذي نتحدث عنه

- صاحبك يزعم أنه قد أسري به إلى الشام في زمان لا انتقال فيه إلا بالدواب والقرآن ينزل مقرا بهذا: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

فيأتيهم الجواب، الجواب الحاسم: إن كان قال فقد صدق!

وإنا لنصدقهُ فيما هو أبعدُ من هذا، نصدقهُ على خبرِ السماءِ

إن كلمات الصديق هذه ردٌّ على تشكيك المشركين لم تكن بخصوص وعد زماني في غيب لا يعلمه إلا الله بل كانت بخصوص حدث مكاني يستحيل عقلًا أن يكون في عرفهم المعاصر

لكنه صدّق وأرسى القاعدة

إن كان قال فقد صدق..

العبرة أن يصح أنه قال فإن صح القول فهو الصدق والحق الذي لا يأتيه الباطل ولا يعكره الكذب

كذلك كان سيدنا أبو بكر نموذجا للتصديق في شأن الوعود المستقبلية وليس فقط الأخبار

حين نزل قول الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم:٤] خرج سيدنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى طرقات مكة مرددًا إياها صادِعًا بكلماتها

تعجَّب أهلُ مكة من فحوى الكلمات في زمان لا توجد فيه وسائل إعلام تنقل مثل تلك الأخبار إلى مكان بينه وبين معارك الفرس والروم مئات الأميال!

والأعجب هو كيفية علمه أن الروم سيغلبون من جديد بعد بضع سنين؟

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

استمرت الصيحات تجلجل بثقة في أرجاء مكة

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

كرَّر الصديق صيحاته المستبشرة في طرقات مكة والملأ من المشركين يضربون كفًّا بكف

كانت فارس يوم نزلت هذِه الآيةُ قاهرينَ للرومِ وَكانَ المسلمونَ يحبونَ ظُهور الرُومِ عليْهم لأنَّهم وإياهم أَهلُ كتاب وفي ذلِكَ قولُ اللهِ تعالى ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:٥].

وكانت قريشٌ تحبُّ ظُهورَ فارسَ لأنَّهم وإيَّاهم قوم وثنيون ليسوا بأَهلِ كتابٍ ولاَ إيمانٍ ببعث أو نشور

لذا وقفوا لأبي بكر بحقد وغل مشككين يقولون: فذلِكَ بينَنا وبينكُم زعمَ صاحبُكَ أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضعِ سنينَ أفَلا نراهنُكَ على ذلكَ؟

عندئذ قال الصديق بيقين المؤمن المصدق لموعود الله الذي لا يهزه تشكيك ولا يزعزعه مراء أو تسفيه: بلى.

(كان ذلك طبعًا قبل تحريمِ الرِّهانِ)

ارتَهنَ أبو بكرٍ والمشرِكونَ وتواضَعوا الرِّهانَ وقالوا لأبي بكرٍ: كم تَجعَلُ البِضع ثلاثَ سنينَ إلى تسعِ سنينَ

فسَمِّ بينَنا وبينَكَ وسَطًا تنتهي إليه

طلبوا منه تحديد قاطع يجزم فيه بالسنة التي تنتصر فيها الروم على عدوها

وهنا كانت الزلة من الصديق ولا معصوم إلا النبي ﷺ

الوعد الرباني في الآية كان على التراخي ولم يكن على التعيين لكن أبا بكر رضي الله عنه سمى أجلًا وحدد موعدًا وما كان له

أن يفعل لكن يقدر الله أن يزل تلك الزلة التي كان منشأها التصديق المطلق لكلام الله وليتعلم المسلمون درسًا ما أعظمه

لقد حدد سيدنا أبو بكر البضع هنا بست سنين وراهنهم على ذلك

مضت الأعوام وحدثت المتغيرات ووقعت الوقائع ثم جاء أجل الرهان

ولم تنتصر الروم

رغم مضي الأعوام الستة كما وعد أبو بكر لم ينتصروا

تهلل المشركون وظنوا أن قد أثبتوا خللا في وعد الله فأخذوا رَهنَ أبي بكرٍ فرحين بباطلهم مستبشرين بتكذيبهم ودخل على الصديق غم عظيم

لكن اليقين بموعود الله أبدًا لم يهتز

إن الذي زل هو الصديق وهو بشر يخطئ ويصيب على مكانته وقدره وكان مناط إسراعه = شدة يقينه وتصديقه

ما إن دخَلَتِ السَّنَةُ السابعَةُ إلا وقد ظهرَتِ الرُّومُ على فارِسَ وتحقق موعود الله وآمن خلق كثير بعد تلك الآية والنبوءة القرآنية المتحققة

ما يعنيني هنا أن أبا بكر كان قد وعى الدرس

تمر الأعوام ويأتي موقف الحديبية ويعلن الوعد النبوي بالاعتمار ويستبشر المسلمون وتتهلل أساريرهم

ها قد حان الوقت لنرى بيت الله الحرام وكعبته المشرفة من جديد

ها قد آن الأوان لنلبي النداء ونهل محرمين مكبرين مهللين ولنطوف بالبيت العتيق

فلنسق الهدي ولتسابق قلوبنا لتهفو إلى أم القرى

لكن جاء المنع وعاند أئمة الكفر

ثم كان الصلح

لا عمرة إذن هذا العام!!

- «أليسَ كان يُحَدِّثُنَا أَنَّا سنَأْتِي البيتَ ونَطُوفُ به؟»

هكذا صاح الفاروق عمر في صاحبه ورفيق كفاحه الصديق

ألم يعدنا رسول الله أن نأتي البيت محرمين محلقي رؤوسنا ومقصرين

فيجيب بيقين الواثق الذي وعى الدرس وفهم كيف التعامل مع الوعود والبشريات: بلى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّك تَأْتِيه العامَ؟

- لا

أجاب عمر نافيًا التحديد

هنا صدع بها أبو بكر بحسم لا يساوره الخلل ولا يأتيه الملل ولا الزلل: «فإنك آتِيه ومُطَوِّفٌ به»

تصديق مطلق كما ينبغي أن يكون

وهكذا يعامل الوحي

تصديق ويقين ولو بعد حين

كم من وعد أطلق في القرآن بتمكين المؤمنين وعز الموحدين

لكن هل قيل متى؟

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥].

وعد قاطع لا شك فيه

لكن متى هو؟

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

لكن متى هو؟

﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

﴿ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ ﴾ [الصف:١٣].

متى هو؟!

علم ذلك عند الله وحده وليس هذا ما يشغل المؤمن

المؤمن يصدق القرآن

يصدقه دون قيد أو شرط

إن وعود الله ينبغي أن تصدق وواجب المؤمن تجاهها أن يوقن بها ويستبشر

بل وواجب الوقت عند البلاء والكرب أن يبشر المؤمنين والصابرين والمخبتين والمحسنين ويثبتهم

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

بشر الصابرين..

لكن التبشير يكون مطلقًا كما علمنا الله وعلمنا رسوله ﷺ ذلك لأن وعود القرآن وبشرياته بشكل غالب هي وعود مطلقة لا تقيد بزمان كما أسلفنا وأيضا الأصل أنها لا تقيد بأعيان وأشخاص إلا في حالات نادرة كما حدث مع سراقة بن مالك ووعده بسواري كسرى وهي حالة استثنائية لا تنفي أن الأصل المطرد هو طلاقة الوعود وعدم خصوصيتها بأشخاص معينين

لذلك نلاحظ فارقًا ظاهرًا بين رد فعل السحرة على وعيد فرعون ورد فعل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين التقى الجمعان وقال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١].

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان لديه وعد قطعي محدد فيه جزم بأن الله تعالى معه هو تحديدا ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وأنه لا محالة سيغلب عدوه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥].

لذلك كان رد فعله يقينا قاطعًا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعي المحدد لأعيانهم والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة فرعون

لكن مع ذلك كان رد فعلهم الصدع بالحق والثبات عليه ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ ﴾ [طه:٧٢] جنبًا إلى جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء على الباطل بلا أدنى ذلة أو استكانة أو وهن ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه:٧٢] بل تراهم أقدموا وثبتوا وأمَّلوا خيرًا عند من هم إليه راجعون معلنين: ﴿ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٥٠].

ثم أعلنوا الرغبة فيما عند الله والاستبشار بجزائه الذي هو خير وأبقى ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٣].

الخلاصة أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا لكنهم التزموا حدودهم البشرية ولم يتألوا على رب البرية بأن ينسبوا إلى أنفسهم ما لم ينسب لها، أو يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدا أطلقه الله سبحانه

جل الوعود القرآنية والنبوية تأتي على الإطلاق

كوعد النبي ﷺ لخباب بن الأرت لم يذكر له متى يتم الله هذا الأمر لكنه سيتم

وقد وعدت خديجة بين المؤمنين لكنها ماتت في الشعب ولم تشهد أي فتح أو نصر

ومات مصعب وحمزة في أحد دون أن يريا تمكينًا أو فتحًا لمكة

مع ذلك ظل اليقين وظل العمل والثبات والتصديق بموعود الله حتى إدراكه أو الممات

وهكذا تعامل القرآن ووعده ووعيده

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ [الأحزاب:٢٢].

يقين لا يهتز في زلزال البلاء وتصديق لا يرتجف بين أتون المعارك ورياح الأنواء

عقيدة ثابتة لا تتغير ولا تتلون ولا تتبدل بتبدل الظروف والمؤثرات

فارق من أعظم الفوارق بين المؤمن الصادق والمنافق الكاذب

فهذا الأخير لا يصدق إلا ما تلمسه يداه ولا يوقن إلا بما يراه لذا تجده متربصًا إن جاءت الريح في مصلحته ركبها وأمعن في الانتفاع منها وإن جاءت بما لا تشتهي سفنه شكك وكذَّب وكان لسان حاله ومقاله كمن قالوا يوم الأحزاب: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

أما المؤمن فاعتقاده بمعزل عن مصلحته العاجلة ويقينه منفصل عن أهوائه وشهواته الآنية وحيث أنه لا ارتباط بين المتغيرات وبين ما يصدقه لذلك تجد منحنى اليقين والتصديق والأمل لديه ثابت سواء رأى أو لم ير

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

الاحتمالان قائمان إذن

أن ترى

أو لا تعيش لترى

لكن التصديق ليس خاضعًا للاحتمال

وهكذا ينبغي أن نتعامل مع كلام الله

تصديق مطلق ويقين جازم

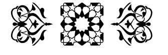
يقين أنه الحق

حاول جاهدًا أن تقرأ القرآن بهذه النفسية

نفسية المصدق

وحينئذ فأبشرك بشأن آخر وتفاعل مختلف وصحبة من نوع جديد

صحبة اليقين



١٢. أن تتواضع

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

تلك هي أولى العقوبات المترتبة على هذا المرض العضال

مرض الكِبر

ويا لها من عقوبة

أن يصرف الله المتكبر عن طريقه

أن تعمى عينه عن رؤية الحقائق الجلية

أن يختار دوما سبل الشر ويرفض باستمرار ولوج أي سبيل خير ورشد

﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ [الأعراف:١٤٦].

ثم يطبع الله على قلبه

قلب المتكبر

﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر:٣٥].

عقوبة أخرى مفزعة من عاجل عقوبات الكبر وأهله

الطبع على القلب

ذلك القلب القاسي الغليظ الذي قُدَّ من صخور الفخر واكتسى بِرَانِ العلو وأحاطت به أسوار الغرور

فإن أصر واستكمل تسلق تلك الأوهام التي اغتر بها فإنه لا يلبث إلا ويهوي في يوم يُحشر فيه أمثاله كالذر يطؤهم الناس بأقدامهم

هكذا وصف النبي ﷺ في ذلك اليوم العصيب

«يُحشَرُ المتكبِّرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ يغشاهم الذُّلُّ من كلِّ مكانٍ»

أولئك الذين ملئوا الأرض كِبرًا وعلوًّا ها هم قد صاروا في حجم حشرة وذلة هوام الأرض بل أشد هوانًا

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ ﴾ [الحج:١٨]

ثم يكمل النبي ﷺ حديثه عن إيلامهم وإذلالهم جزاءً وفاقًا على استكبارهم الأول

«يُساقون إلى سجنٍ في جهنَّمَ يُقالُ له: بُولَسُ تعلُوهم نارُ الأنيارِ يُسقَوْن من عُصارةِ أهلِ النَّارِ طِينةَ الخَبالِ»

أي ذلة وأي هوان!

سقياهم عصارة إخوانهم المستكبرين وعرق أوليائهم المتعالين

فليذوقوه إذا في هذا اليوم فلطالما ذاقوا طعمًا آخر لم يقبلوا التلذذ بغيره

طعم أنفسهم

لذا يُعد الكبر وعلو النفس من أعظم الكبائر والذنوب بعد الشرك بالله

بل هي أحيانًا تصل إلى نوع من الشرك حين يُعظم المرء نفسه حتى يكاد يعبدها

أولئك الذين تقطر حروفهم ومواقفهم بالعلو وتنضح نظراتهم واختياراتهم بالغرور والشعور بالفضل ورؤية النفس

من لسان حالهم دومًا: أيها الناس قد أكرمكم الله بوجودنا بينكم وامتنَّ عليكم بأعظم نعمه حين وُلدتم في عصر يتشرف أن عشنا فيه!

قوم لا ينقصهم إلا أن يصرحوا باستحقاقهم عبودية غيرهم ويطالبوا الخلق ألا يفتروا عن التسبيح بحمدهم

وفي الحديث «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»

أيضًا أخرجه الْحَاكِمُ بِلَفْظ «**الْكِبْرُ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَازْدَرَى النَّاسَ**»

حسنًا.. ازدراء الناس معلوم واضح

التحقير من شأن الآخرين

لكن ما يعنينا في هذه المقالات عن التعامل مع القرآن هو الشق الأول

بَطر الحق..

رده ورفضه وعدم قبوله

والقرآن هو الحق الذي أنزله الحق جَلَّجَلَالُهُ

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩].

لذا شر أنواع الكبر هو ذلك التكبر على آيات الله وبطر الحق الذي أنزلها الله به

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء:١٠٥].

من هنا نخلص إلى تلك القاعدة المهمة التي ينبغي أن يتحلى بها صاحب القرآن خصوصًا أثناء صحبته وتلاوته

قاعدة التواضع للقرآن..

التواضع لآيات الله جَلَّجَلَالُهُ

وأن يحذر قارئ القرآن كل الحذر أن يكون أثناء تلاوته من أولئك الذين يتبغضون إلى ربهم بأول خطيئة عُصي بها فيما نعلم

خطيئة إبليس التي أودت به إلى الكفر والجحود بعد حين وحالت بينه وبين الانتفاع بأي آية رآها يومًا

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤].

كان الإباء بسبب الاستكبار

ثم كان الكفر مآله

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢].

هذه هي..

أنا خير..

رؤية النفس

الشعور بالخيرية والأفضلية

الإحساس بالغرور المقيت

عندها تبدأ رحلة الهبوط والصغار

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣].

تلك هي القاعدة

ليس هاهنا مكان للمتكبرين

الجنة دار المتواضعين الهينين اللينين

في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

والله لا أتصور كيف يهنأ للمتكبر بال ويغمض له جفن بعدما يسمع هذا الحديث

مثقال ذرة من كبر تحول بين المرء وبين أعظم مطالبه

فكيف بما هو أثقل من ذرة

كيف بمن يدمن الكبر ويستعذب العلو

«**ألا أخبركم بمن يحرم على النَّار، وبمن تحرم النَّار عليه؟ على كلِّ هيِّن ليِّن قريب سهل**»

تقرير آخر بهذه الحقيقة..

النار ليست للهين اللين القريب السهل

عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا يسكنون مكانًا آخر

يسكنون الغرف العلا من الجنان

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٧٥].

أما النار فجعلها الله لمن استكبروا وعلوا

«**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟**»

هكذا سألهم رسول الله ﷺ يطلب انتباههم

ثم كانت الإجابة

«**كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**»

صفات الغلظة والفحش تختم كما ترى بالإشكال الأصلي **الكبر**..

تلك صفات أهل جهنم أعاذنا الله منها

لكن لماذا يصر المستكبر على استكباره رغم كل تلك التحذيرات المعلومة

ببساطة لأنه غالبًا ما يتغافل أو ينكر حقيقة كبره أو يبررها بالاستحقاق كما فعل إبليس حين زعم خيرية مادته على مادة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأنه إنما يقرر حقًّا حين يعلو ويتعالى وحين يرفض أي حق من الآخرين لأنهم دومًا دونه وأقل منه

إنه ظلم النفس بالاستعلاء بها عن قبول الحق

وهذا ما ينبغي الحذر منه خصوصًا عند تلقي ذلك الحق القرآن..

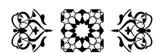
وبدلالة المفهوم للآية التي صدرنا بها هذا الفصل والتي تنص على صرف المتكبرين عن آيات الله = فإن المتواضعين يُهدون إلى تلك الآيات ويُفتح عليهم في فهمها وتدبرها

أولئك الذي أقبلوا على القرآن بافتقار منكسر وولجوا إلى ترتيله من باب التذلل والخضوع وإظهار الاحتياج لكل معنى وكل توجيه ووصية تحويها آياته

أولئك الذين تلوا آياته مظهرين التخلي عن كل حول وقوة ومبدين العوز لحول ربهم وقوته كي يهديهم ويفتح لهم سبل التنعم بجنة الدنيا والآخرة

أولئك من يُظن بالله ألا يصرفهم عن آياته

وألا يصرفها عنهم





ثالثًا: مرحلة ما بعد التلاوة

الإثمار

أنا الذي أَظْمَأْتُكَ في الهَوَاجِرِ وأَسْهَرْتُ لَيْلكَ

وإِنَّ كلَّ تَاجِرٍ من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة

تلك هي الإجابة التي أخبر النبي ﷺ أن القرآن يعرف بخا نفسه حين يَلْقَى صاحبَهُ يومَ القيامةِ لما يَنْشَقُّ عنهُ قَبْرُهُ

إجابة تعبر بوضوح عن النتيجة والمآل الذي يلخص المرحلة الأخيرة التي بلغناها في رحلتنا مع صحبة القرآن

مرحلة ما بعد التلاوة

أن تثمر تلك التلاوة

أن ينتج عنها العمل

أَظْمَأْتُكَ في الهَوَاجِرِ وأَسْهَرْتُ لَيْلكَ

صوام قوام هو إذًا

لقد غير القرآن حاله وصبغ حياته بالعبودية في نهاره وليله

ذلك المراد والقيمة التأسيسية التي يمكننا أن نعتبرها الأصل في تلك الصحبة مع القرآن

قيمة التغيير والعمل..

- أن يغيرك القرآن

- أن يحولك إلى إنسان أفضل

- أن يصحح تصوراتك الخاطئة وأن يوضح لك حقائق غابت عنك

- أن يصلح من معتقداتك وأن يقوِّم سلوكياتك وأن يقوي ما لان من همتك ويقيم ما اعوج من شخصيتك

كل ذلك تشتمل عليه تلك الكلمة

التغيير

ذلك هو المقصد الأسمى وتلك هي الغاية الأعظم

وهذا هو الأصل الأهم والأخطر الذي ينبغي أن يكون الأساس في علاقتنا بالقرآن والذي نقيم به درجة انتفاعنا به في هذه الحياة الدنيا

لذلك تم الربط بين مدارسة النبي ﷺ للقرآن في رمضان وفعل إيجابي وهو الجود المضاعف الذي كان يتزايد فيصير كالريح المرسلة

كل ذلك حين يأتيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيدارسه القرآن

تأمل الربط..

علاقة وثيقة بين القرآن وتدبره ومدارسته وبين العمل والتطبيق

إن القرآن في الأصل كتاب تغييرى أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور

هو كتاب لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا ولشهدته متصدعًا فيفترض أن يترك أيضًا أثرًا جذريًّا في حياة المرء إذا سرت فيها، وتسربت إلى أركانها آياته وتسربل بنورها واقعه.

لقد قال الله ذلك عنه بكلمات محكمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد:٣١].

تقدير الكلام لكان هذا القرآن هو الذي يحدث تلك التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال وتقطيع أرض وتكليم موتى فإن كانت تلك قدرته التغييرية على تلك الكائنات والأفعال الكونية الجسيمة بل وما هو أعظم منها فما بالك بقدرته التغييرية على قلبك ونفسك إذا صاحبته

وإن هذا هو الواقع المشاهد فعلا فكم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس كانت ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب

كم من بعيد عن الله مسرف على نفسه متبع لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره

❁ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من الأنبياء من نبيٍّ، إلا وقد أُعطَى من الآيات ما مِثلُه آمنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ**» صحيح الجامع

إن القرآن هو المعجزة الأقوى من عصا موسى وإحياء عيسى ورياح سليمان وجِنِّه المُسخر

إنه الآية الأعظم من ناقة صالح والحديد الذي لان لداوود والفُلك التي حملت نوح عليهم جميعًا أفضل الصوات وأزكى التسليمات

القرآن أقوى من كل آياتهم ومعجزاتهم التي بمثلها آمن الناس

وموطن هذه القوة هي تلك القدرة التغييرية المذهلة التي لولاها ما كانت هذه البطولات المبهرة ولا الأمجاد المذهلة

لولا القرآن...

كلما طالعت كتابًا عن أصحاب النبي ﷺ أو سمعت طرفا من سيرتهم العطرة ومواقفهم العظيمة ثم انبهر قلبك وخيم الذهول على روحك وسيطرت الدهشة على نفسك = تذكر تلك الكلمات:

لولا القرآن ما كان شيء من هذا!

- **القرآن** هو ما صنعت به تلك البطولات المبهرة وصيغت منه تلك النفوس النبيلة

- **القرآن** هو السبب في صمود خالد بن الوليد في غزوة مؤتة حتى تتكسر في يده تسعة سيوف ولا ينكسر عزمه

- **القرآن** هو السبب في إيجاد أنس بن النضر لريح الجنة من دون أحد وثباته حتى يتمزق جسده كله مقبلا غير مدبر

- **القرآن** هو ما جعل مصعب بن عمير وجعفر بن أبي طالب يفضلان أن تقطع أيديهم وتراق دماؤهم ولا تسقط تلك الراية التي تعلن علو هذا الدين وكتابه العظيم

- **لولا القرآن** ما ثبت هؤلاء

- **لولا القرآن** ما صبروا ولا تجلدوا

- **لولا القرآن** ما أصابت عاصفة التغيير ظاهرهم وباطنهم وما امتزجت رياحها بقلوبهم ومشاعرهم

- **وهل كانت أم سليم** لتصبر على لأواء الحر والعطش في صحراء مكة بعد أن تركها المشركون لثلاثة أيام دون قطرة ماء لولا القرآن؟!

- **وهل كانت سمية** لتأخذ بالعزيمة وتثبت على ملتها وتأبى أن تخرج من فمها كلمة الكفر حتى تطعن بالحربة في موطن عفتها ويسيل دمها كأول شهيدة في الإسلام لولا القرآن؟!

- **وهل كانت لتثبت زنيرة** جارة عمر بن الخطاب قبل إسلامه والتي أحمي لها في النار حتى فقدت بصرها ولم تفقد إيمانها لولا القرآن؟!

- **وهل كان خباب بن الأرت** رضي الله عنه ليتحمل إرقاده على الجمر المشتعل لا يطفئه إلا شحم ظهره لولا القرآن؟!

كل الثبات

كل البطولات

كل الإنجازات

كل الفتوحات

كل ذلك ما كان ليحدث لولا هذا التغيير الذي تسبب فيه القرآن

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣].

هكذا قالها لنبيه صريحة قاطعة

كنت من قبله من الغافلين

وأنتم جميعًا أيها المؤمنون

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨]

من دون القرآن أنتم في ضلال

في غفلة

بل في ظلمات

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]

هذا هو فعل القرآن في البشر ببساطة ووضوح

الانتقال من الظلمات إلى النور

من الضلال إلى الهدى والرشاد

التغيير للأفضل..

- ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]

- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢].

يتكرر اللفظ والمعنى ويتقرر المقصد

- يهدي به
- يهدي للتي هي أقوام
- نهدي به من نشاء

إنها الهداية إذًا

والهداية تغيير كما لا يخفى

الإيمان نفسه إنما يزيد بالقرآن

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤]

هذا حال المنتفع بالقرآن كما ترى

تنزل السورة من القرآن فيزداد إيمانه

بل بمجرد تلاوة الآيات عليه يزداد ذلك الإيمان

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]

تأمل الكلمة

﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾

والزيادة تغيير كما لا يخفى عليك

إنه المقصد يظهر من جديد ولا يتسع المقام لذكر كل مواضعه في القرآن

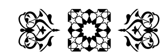
لكن ما ينبغي أن يتسع له هو التماس سبل تحققه

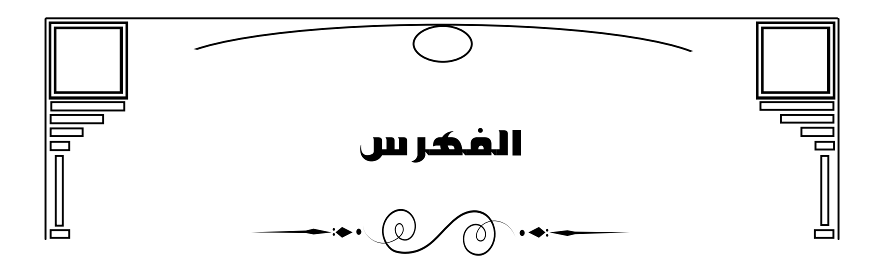
تحقق ذلك التغيير بعد التلاوة

وإن للقرآن وسائل وأساليب تغييرية متعددة وثمار ينبغي أن تظهر في حياة من صاحب القرآن بعد تحقق تلك الصحبة

هذه الأساليب والثمرات هي بإذن الله ما سنفرد له الجزء الثاني من هذا الكتاب والذي سنفصل فيه بإذن الله مرحلة ما بعد التلاوة وعوامل التغيير في القرآن

فاللهم يسر ووفق وأعن..





الفهرس

